روايات عبير الجديدة

ريبيكا ويست

سينتهي العمر

www.elromancia.com
مرمورية

www.elromancia.com

سينتهي العمر

ريبيكا ويست

عاشت مع جدها خلف أسوار القصر، بعيدة عن العالم. وعندما توفي جدها، وافقت داماريس على الزواج من وريثه، ابن عمها المجهول مارك، حتى تظل محتفظة بالقصر. ومهما كان شكل أو عمر هذا الابن العم، فستكون زوجة وفية له. وهذا يعني أن تحذر من الوقوع في حب رجل آخر. لكن من المؤسف القول انها وقبل أن تتعرف على مارك، وجدت نفسها تقع في حب كريستيان تريفور الجذاب. هل تظل وفية لوصية جدها أم تقرر بنفسها مصيرها وتقول لا؟

١ ـ متى تكبر الطفلة!

كانت داماريس ترهران، من بلدة رافنسكراج في مقاطعة كورن رابل، آخر نسيب مباشر للسير هيوغ ترهران، الذي كان الشخصية المرموقة على المسرح المحلي لأكثر من نصف قرن. مات والداها وهي طفلة، وربتها السيدة غارث المربية ومدبرة المنزل، الأرملة، التي كانت تدير المزرعة منذ وفاة زوجة السير هيوغ، التي لا تذكرها داماريس كثيراً، يساعدها عدد من المربيات، كانت هيلين كارو آخرهن وأكفأهن، وكانت ايضاً الوحيدة التي اكتسبت ثقة تلميذتها.

كانت هيلين كارو، الحازمة والفخورة بنفسها، قد تعلمت على الدوام حكمة إبقاء آرائها لنفسها، في منزل مخدومها، ولكن شروط سيدها المتوفي، جعلتها تخرج عن تحفظها، إضافة الى أنها قد اصبحت الآن دون عمل، فعلّقت قائلة:

ـ إن هذه الترتيبات هي أكثر ترتيبات منافية للعقل سمعتها في حياتي!

ورمقها المحامي، البرت بريستون، المتحفظ والمتزن، بنظرة عصبية، وخلع نظارته وبدأ بتنظيفها. وقال ببرود:

ـ ما من شك أن عميلي المرحوم، ظن بأنه يضع شرطاً حكيماً للفتاة، ولكن آراءه كانت غير ملائمة، على كل لا حاجة بك لأن تتضايقي، فأنا أشك في أن

تكون هذه الفقرة من الوصية ملزمة لأي طرف من الأطراف المعنية.

وأعاد وضع نظارته على أنفه، وحدق بالشخص المعني. كانت داماريس ترهران جالسة شبه يائسة عند حافة النافذة، حيث تبرق أشعة الشمس عبر الزجاج المغلق لتشع كالنار على الشعر النحاسي اللون الذي يتموج حول وجهها الصغير الشاحب، ذو العينين الواسعتين بلونهما الأخضر والرمادي الغريب، تلمعان كالذهب، وكأنهما عينا قطة. وبدت في ثوبها الأسود البسيط كطفلة، وشك السيد بريستون في أن تكون معاني ما قاله لها قد شقت غلاف الحزن الذي يحيط بها.

أكثر ما كان يشغل حياة داماريس هو جدها، فقد كانت رفيقته الدائمة منذ أوائل عمرها، وعلّمها ركوب الخيل والسباحة، وغرس في نفسها شعور الحب لأملاك المقاطعة التي ولدت فيها، وفولكلورها وتقاليدها، التي ارتبطت مع تاريخ عائلتها.

والبارون أصبح مع تقدمه في السن منعزلاً تماماً. كتبه، وكلابه، وخيوله، ورفقة حفيدته اصبحت كل ما يرتضيه. وبقي سليم الصحة والقلب إلى أن أصابه المرض الاخير، وكان من الممكن أن لا يكون هذا المرض قاتلاً لو أنه اعتنى بنفسه، ولكن السير هيوغ كان يحتقر دوماً المرض الجسدي ويرفض ان يدلل نفسه، وفي النهاية انهار فجأة، وأصابته جلطة دموية أودت بحياته، تاركاً وراءه فتاة وحيدة يائسة صغيرة السن.

ولم تكن داماريس بعد قد أدركت مدى خسارتها. فموته الفجائي، ومراسم الدفن التي تبعته والتي شهدها حشد من الغرباء، رغبوا في تكريم ذكرى البارون الذي كان يتجاهلهم في المرحلة الأخيرة من حياته، كل ذلك بدا وكأنه

غير حقيقي. حتى جهود السيد بريستون لشرح ما توصلت اليه حالتها كان يبدو ايضاً بعيداً عن الواقعية. ففي الواقع كانت تعرف أن السيد هيوغ قد ترك المزرعة لحفيد اخيه والذي سيرث اللقب على اية حال، كما أخبرها العجوز بنفسه، وكانت تعرف ايضاً بموضوع الشرط المرتبط بالوصية والذي أغضب مربيتها، مارك ترهران ينتمي إلى فرع من العائلة استقر في اميركا الجنوبية، وكان السير هيوغ قد فقد الاتصال بهم.

وقالت بشيء من التوتر:

ـ لقد قال جدي إن المزرعة ستبقى دائماً منزلي...

كانت تحب ذلك المكان، فهو كل عالمها منذ أن فقدت والديها.

وحدق السيد بريستون بعصبية إلى هيلين كارو، وسعل سعلة خفيفة وقال:

ـ كان السير هيوغ يأمل أن يستمر الوضع على ما هو عليه.. لذا.. وضع هذا الشرط الغريب.

كان قد احتج على هذا الشرط عندما كان يكتب الوصية مع السير هيوغ، ولكن السير هيوغ اصر على أن يحصل وريث اللقب على المزرعة، وبما أن داماريس تحتاج لحماية، فإن أفضل شخص يمكن أن يوفرها لها هو زوجها. لذا فقد ترك المزرعة لمارك ترهران شريطة أن يتزوج داماريس.

وقالت داماريس بطريقة طفولية:

ـ آمل ان لا يمانع ابن العم مارك في الزواج مني.

ونظر السيد بريستون إلى وجه الفتاة الابيض بعطف. لقد كان السير هيوغ مخطئاً، كما اعتقد، بإبقائها معزولة في تلك المقاطعة، اذ لم يكن مدركاً أن الرجل العجوز كان يشمئز من نماذج الشبان «المودرن» الذين يرتادون الريف

الغربي أيام الصيف، ولم يقدر أبداً على تصديق أن خلف زيهم الغريب، لا تزال القيم الأخلاقية موجودة، كان يؤمن بأن الشبان هذه الأيام منحطون، أخلاقهم سيئة، وغير منضبطين، لذا لم يكن يسمح لداماريس بمخالطتهم، حتى عن طريق الذهاب إلى المدرسة، حتى أنه لم يكن يشجعها على قراءة الجرائد. وعندما تعاقد مع هيلين كارو، قال لها إن حفيدته، يجب ان تتعلم لتصبح «لايدي» وان تبقى بعيدة عن كل تأثير مفسد، بعد ذلك أدرك متأخراً أنها عديمة الخبرة لمواجهة الدنيا فأورثها لوريثه، وهو واثق أن مارك سيعتني بها.

وقالت هيلين بغضب مجيبة على كلام داماريس:

- لقد تلقى رشوة ليتزوجك، فالمزرعة هي مكان قديم رائع، وتاريخها الأثري سيروق لأميركي.

واستدارت إلى المحامي وأردفت:

- ربما يكون مرتبطاً الآن؟ فمن غير المحتمل أن يكون رجل في عمره لم يفكر بالزواج بعد.

وقال السيد بريستون باقتضاب، دون أن تعجبه كلمة «رشوة».. «السير مارك غير متزوج» وجفلت داماريس من استخدامه للقب الذي كان لجدها، بينما تابع هو «وليس لديّ أية فكرة عن عمره. لقد أبرق يقول إنه يأسف لعدم تمكنه من حضور الجنازة. ولقد أطلعته على شروط الوصية بالطبع والباقي عائد له».

وقالت هيلين «لقد كان السير هيوغ كريماً جداً معي، فقد ترك لها مبلغاً محترماً من المال قد يمكنها من تحقيق حلم قديم لها، بمشاركة صديقة لتأسيس محل لبيع الهدايا، ولكنها قد تؤجل الفكرة وهي سعيدة إلى أن تتأكد من أن

مستقبل داماريس مؤمن بشكل مريح، وتابعت تسأل «ألن تحصل داماريس على شيء مخصص لها إذا رفض سير مارك تطبيق هذا الشرط السخيف؟».

- سيكون لها مدخول بسيط من حصة أمها، وسيصبح المبلغ كاملاً لها عندما تبلغ الواحدة والعشرين وحتى ذلك الوقت، فالسير مارك وأنا وصيان عليها.

ونظر ثانية إلى الفتاة الجالسة قرب النافذة وسألها:

- كم عمرك الآن يا عزيزتي؟

- ثمانية عشر.

- حقاً؟ كم تمر السنين بسرعة!

كان يظن أن عمرها حوالي خمسة عشر، وتساءل عما سيفعله بها السير مارك. فقد سمع إشاعات حوله، لقد لفت الأنظار إليه في باريس ومونت كارلو عندما زار اوربا. فأعماله في الارجنتين يبدو أنها تدر عليه المال الوفير. ويجب ايجاد تسوية ما، لأن هذا الرجل المتأنق المعروف في العالم، لا يبدو مناسباً لهذه اليتيمة الصغيرة الشاحبة التي تجلس عند النافذة وبدأ يشك أن شرط السير هيوغ قد يصمد امام أية محكمة. وقالت هيلين وهي تشعر بالراحة:

- وبعد ذلك تصبح مستقلة، ولا حاجة لها ان تفي بذلك الشرط السخيف.

وضغطت داماريس على شفتيها وقالت:

- لقد قال جدي إنني يجب أن أتزوج ابن عمي مارك.

فردت عليها هيلين بحدة:

- أنت صغيرة جداً للتفكير بالزواج.

ـ أنا في الثامنة عشر، ويجب أن أحقّق رغبات جدي.

وتبادل الرجل والمرأة النظرات، وهز المحامي كتفيه قليلاً، فقد يسبّب عناد داماريس بعض الصعوبات. فقال وهو يغلق حقيبته:

ـ حسناً.. سوف ننتظر تعليمات السير مارك. فقد تأخذ إجراءات تنفيذ الوصية وقتاً.

والتفت إلى هيلين وتابع:

ـ هل ستبقين هنا يا آنسة كارو، الى أن تحصلي على مالك؟

ـ سأبقى مع داماريس طالما هي تحتاجني.

وسألته داماريس بلهفة:

ـ هل سيأتي ابن عمي مارك قريباً؟

ـ آمل هذا، فنحن بحاجة لاستشارته. أما الآن فلا حاجة بك للقلق يا عزيزتي. فانا متأكد أن كل شيء سيكون على ما يرام.

كان يريد أن يكون كلامه مطمئناً، ولكنه كان يتوقع العديد من الصعوبات، ولم يكن يعرف بأن داماريس لم تكن قلقة البتة. فقد أحبها جدها وحماها، وبحكمته الثاقبة تركها لابن عمها مارك، وهو متأكد انه سيحبها أيضاً ويحميها، كان الأمر بهذه البساطة عندها.

وبينما هو يصافح اليد السمراء التي مدتها داماريس له كان في قرارة نفسه يلوم موكله الراحل لأنانيته في عدم إرسال داماريس إلى المدرسة ومن ثم إلى الكلية، وتركها تنمو بشكل طبيعي. وأدرك الآن، وهي تقف الى جانبه، بدهشة أنها قد أصبحت بطوله تقريباً، السذاجة البريئة في عيني هذه الفتاة، أثرّت عليه، ودخلت رأساً الى قلبه، مثيرة فيه إحساساً بالشفقة.

ـ سأكون هنا لأعتني بك. اتصلي بي عند أية مشكلة تصادفينها. وتذكري أنني واحد ممن يجب أن تثقي بهم... هل ذكر لك جدك من قبل... مشروع الزواج هذا؟

ـ اجل عدة مرات، ولكن مؤخراً.

قبل وفاته بعدة ليال، كان قد قال لها شيئاً حول مستقبلها.

ـ لن أعيش اكثر من هذا يا داماريس. ولكن لا تقلقي حول ما قد يحدث لك. فقد حضّرت للأمر.

وبكت يومها لأنها لم تكن تتصور أنها تتحمل الحياة من دونه، ويجب عليه أن لا يتكلم عن الموت. فأسكتها بلطف وتابع:

ـ كما تعلمين.. اللقب سينتقل إلى الوريث الذكر، وهو ابن عمك مارك. وحامل اللقب يجب ان يعيش هنا، والمكان يحتاج إلى رجل يديره، اذ اهمل أنني قد أهملته في المدة الأخيرة، ولكنك لن تخرجي منه، وانا أعلم أنك تحبين المزرعة. والحل هو أن يتم الزواج بينك وبين مارك. سأكتب له واطلب منه القدوم للسكن هنا، وسنناقش الأمر معاً.

لم يكن قد اخبرها في السابق أي شيء عن اقربائهم في أميركا الجنوبية، ولكنه تلك الليلة أخبرها الكثير. كان شقيقه الأصغر، قد ذهب الى هناك سعياً لتأمين مستقبله في العالم الجديد، وتزوج امرأة ثرية، واشتريا مزرعة في الأرجنتين.

ـ والداك كانا مسافران لرؤيته عندما قتلا، حتى يوم مقتلهما كنت آمل بحفيد. والتقيت بأخي في الجنازة. كان شاباً مكتملاً، ولكنني لم أحب زوجته الارجنتينية. ولم اشاهدهما منذ ذلك الوقت، وقد توفي هو الآن ايضاً، ولهذا

سيكون اللقب من نصيب مارك. ولا أعلم إذا كان هناك غيره، أعتقد أن هناك فتاة، ولكن مارك هو من يهمنا، ولا بد أنه اكبر منك سناً، لأن والده تزوج في سن مبكرة، وقد حان الوقت للتعرف عليه.

ولكن الوقت لم يسعفه، فقد انتظر السير هيوغ طويلاً ليفكر بالأمر. وبعد أسبوع توفي.

عندما اعترفت داماريس بهذه المعلومات أصدرت هيلين حركة تنم عن الدهشة.

- لم تقولي لي هذا أبداً يا داماريس.

لو أنها علمت لكانت تناقشت مع العجوز.

- أنا.. لم أرغب في التحدث بالأمر... لم أحتمل التفكير بأن جدي سيموت، ولكنه قال إن ابن عمي سيأتي للعناية بي حتى لا أكون وحيدة. وقال إن بإمكانه مواساتي.

وفكر السيد بريستون في نفسه أن هذا قد يكون آخر شيء من المعقول أن يفعله البارون الجديد. فما قد يحتاجه، زوجة مثقفة تدير له منزله الرائع وتتصرف كمضيفة أمام اصدقاءه، وليس فتاة لا تزال قيد النمو قد تحتاج الى صبر لا حدود له والكثير من الفهم قبل أن تصبح مناسبة لملء المركز المطلوب منها، ولكن شيئاً من هذا لم يظهر على وجهه بينما كان يربت على يدها.

- وداعاً يا عزيزتي... سأراك ثانية عما قريب.

- شكراً لقدومك وشرحك كل شيء لي.

ورافقته هيلين إلى السيارة، واستغلت الفرصة لتسهب في التأكيد عن

مشاعرها حول الوضع. كانت امرأة وحيدة، بسيطة في أواسط عمرها، تركز كل عاطفتها المحرومة على من ترعاها، وكانت مرتعبة من المأزق الذي وقعت فيه الفتاة. وأشار المحامي إلى أن ذلك الشرط في الوصية لا حاجة لأن ينفذ إذا استطاع الفرقاء التوصل الى تسوية قد لا تشتمل على الزواج.

الفتاة تبدو وكأنها راغبة بما فيه الكفاية، ولكن ردة فعل السير مارك لا يمكن التنبوء بها. ولكن هيلين استمرت بالشعور بالسخط لأن داماريس يجب ان تُسلَّم مع الممتلكات وكأنها رزمة من البضائع. وكانت مقتنعة أن المالك الجديد إذا وافق على الزواج من تلميذتها فإن ذلك سيكون لتقوية وضعه ولقبه في الأملاك، والأكثر من هذا، مارك ترهران كان نصف اميركي لاتيني، الأمر الذي يجعله موضع ريبة، واللاتينيون مشهورون بأنهم غير أهل للثقة مع النساء. وحاولت أن تشرح شيئاً من هذا لداماريس ولكنها وجدت أنها تواجه جداراً من حجر.

فقد كانت الفتاة تفكر بابن عمها، وكأنه نسخة شابة من جدها. وهي تعرف أن الزواج يلزمه أكثر من العاطفة الأبوية، ولكن بما أن مارك كان من الواضح أنه في أواسط عمره تقريباً، فقد تصورت أنه قد تجاوز مرحلة الغراميات، وكل ما قد يرغب به هو الرفقة التي كانت تعطيها للرجل المسن. وكانت تحب منزلها بشغف، ورغبة جدها كانت مقدسة لها، لأنها آخر رغبة أظهرها. لذا فقد كانت غير متقبلة أبداً للتلميحات والإشارات التي قامت بها هيلين.

ولم تستطع هيلين قول المزيد، ولكنها أملت بشدة، أن لا تتألم داماريس كثيراً عندما يحضر مارك.

ومرت الايام، وتأخر وصول مارك ترهران، وفي أثناء ذلك، بدأت داماريس تشفى من أثر الصدمة لوفاة جدها. كل عصا وحجر في الممتلكات كانت تعيد ذكراه، وأخذت تتجول لوحدها أو مع الكلاب، او تركب مهرتها البنية «شيبا» وتجول في كل بقعة مفضلة، بدت لها وكأنه فيها معها. وغالباً ما ظنت، في لمحة جانبية من عينها، أنها لمحت، الطيف الطويل النحيل لجدها والشعر الأبيض الكثيف والعينان السوداوان اللامعتان، ولكنها عندما تلتفت، كانت تدرك أنه غير موجود بجسده، ولكنها كانت متأكدة أنه معها بروحه، وهذه الفكرة كانت تريحها.

كانت شخصاً مألوفاً لدى سكان المزارع والاكواخ، الذين راقبوها تنمو من طفلة تتدرج في مشيتها إلى أن أصبحت في سن المراهقة، وكانوا يحيونها بحرارة دوماً. لقد كانت ودودة معهم ولكن دون إلفة، كانت تنظر اليهم على أنهم شعبها، مدينة لهم بالمسؤولية. وكون ابن عمها مارك سيرثهم، أمر صعب عليها لتقبله، ولكنها كانت مصممة على أن لا تدعه يغتصب مكانتها بينهم.

مزرعة رافنسكراج كانت منزلاً حجرياً رمادياً منخفضاً له سقف قرميدي، بني في أحد أطراف الريف، حيث كان محمياً من الريح الغربية العاتية التي تهب رأساً من الأطلسي. حوله تتصاعد المنحدرات من الوادي الصغير، وعلى قممها بيوت المزارعين، وتحت الحديقة يجري جدول صغير على طول أرض الوادي، وكان ضيقاً جداً لدرجة أنه يبدو كساقية ما بين التلال، يصل إلى شق، طويل ووعر ينتهي به إلى ساحل لا رمال عليه، تحيط به يافطات تحذر من خطر السقوط فيه.

وكانت داماريس، الخبيرة كالمعزاة، قد وجدت طريقاً سرياً يوصلها إلى الشاطىء المهجور. وعندما تصل إلى تحت الجدار الرمادي للشق، تجلس ساعات وهي تراقب المد يغمر ببطء الصخور المدببة، والتي تمتد الى داخل البحر، وبينما هي تجلس هناك لتحلم كان كلباها يتصيدان بمرح ودون نجاح أعشاش النورس. كانا أسودان من نوع اللابرادوس، يدعيان تريستان وايسولد وكانت تختصر اسمها بتريس وسول. سمتهما هكذا عن اسمين من افضل القصص لديها ايسولد أحبت الفارس الشاب تريستان الذي أتى بها من أيرلندا نتيجة شربه لترياق للمحبة كانت تقصد إعطاءه لزوجها الملك مارك ونهاية المأساة لها روايات كثيرة كانت تعرفها كلها، اذ كانت تقرأها باستمرار.

في أحد الأيام كانت تجلس في مكانها المعتاد وقد استغرقت في افكارها، استفاقت فجأة، على صوت تساقط احجار، تبعه نباح مسعور من الكلبين. فقفزت واقفة على رجليها، لتشاهد شخصاً يحاول هبوط المنحدر وانتهى به الامر إلى الانزلاق بقوة على الحصى، بينما كان تريس وسول ينبحان على الجسم الممدد باهتياج.

أول ما شعرت به كان الانزعاج لاقتحام خلوتها، ثم أدركت انها إذا لم تتدخل فقد يقوم الكلبان بالإضرار به، فأسرعت للنجدة.

- تريس، سول اجلسا!

وبتردد تخلى الكلبان عن نباحهما وجلسا وعيناهما القلقتان مثبتتان على الدخيل. ونظرت داماريس الى جسد شاب طويل، يحاول بصعوبة أن يرفع نفسه.

- هل اصبت بأذى؟

وكافح ليجلس، ونظر إلى نفسه، كان جسمه مليء بالغبار، وقميصه الأزرق ممزق في عدة أماكن، ولكن الشورت لم يكن ممزقاً.

- لا.. لا أظن ذلك، ولكنني اعتقدت ان هذين الشيطانين الأسودين سيفترساني.

كان صوته مرحاً، حتى عندما بدا جاداً، ولكنه في تلك اللحظة كان بعيداً عن الضحك، فقد كان يعبس في وجه الكلبين، اللذين كانا يمدان لسانهما الاحمر، ويستمران في التحديق به بريبة. وشاهدت داماريس أمامها وجهاً نحيلاً أسمر، له أنف معقوف يعلوه شعر أسود كثيف. وقالت له:

- لن يعضاك حقيقة، ولكنك تعديت على أملاك الغير كما ترى.

- أوه... هذه سخافة..

ونهض على قدميه بحركة سريعة رشيقة.

ونظر اليها. ولاحظت أنه أطول منها بكثير، بطول جدها تقريباً، وزلقت رجله ثانية على الحصى وبينما هو يسعى لتثبيت وقفته، بدأ الكلبان بالنباح ثانية. فقال:

- أرى انك محروسة جيداً. ولكن هل لي ان أوضح لك ان كل هذه المرتفعات الصخرية من الأملاك العامة؟

- ليس هذه التي تحت ارض رافنسكراج ولا احد يأتي الى هنا أبداً، وليس هناك سوى ممر سري. والشاطىء كله صخري. ألم ترى إشارات التحذير؟

فضحك. وبدت أسنانه شديدة البياض في وجهه الأسمر. كانت ذراعاه وساقاه بلون البرونز ايضاً، ولاحظت عليهم عدة خدوش. وبغطرسة،

وبطريقة متهورة، انعكست في صوته قال:

- انا لا أنظر أبداً إلى إشارات التحذير. فأنا أعتبرها تحدياً لي.

- هذا غير حكيم في مكان كهذا. فهذه المنحدرات هي خطرة حقاً فالصخور هنا تنهار.

والتفت لينظر إلى المنحدر الرمادي خلفه حيث ينتشر عليه ركام الحجارة المتساقطة تحوم فوقها العصافير والنورس.

- هكذا، فهمت.. ولكن كيف وصلت أنت إلى هنا؟

واخذت عيناه تتجولان بها، ودهشت عندما رأت أنهما زرقاوان زاهيتان، متباينتان مع حاجباه السوداوان، ومحاطتان بأهداب سوداء طويلة. وحدق بجسدها النحيل، وبذراعاها وسيقانها، ثوبها الاسود، واللون البرونزي الذي يحيط بوجهها الصغير، وأخيراً التقت عيناه بعينيها وتوقفتا، وأحست فوراً بساقيها النحيلتين، وبقدميها الحافيتين، بعد أن خلعت حذائها. وفي أعماقها تحرك شيء... أول شعور لها بأنها أنثى... وتابع كلامه:

- ربما، تسكنين هنا؟ هل أنت مخلوقة بحرية.. ماذا كان القدماء يسمونها.. حورية، وحدها الحورية، او ساحرة البحر يمكن أن يكون لها هذه العيون الغريبة.

كان صوته منخفضاً ناعماً وعيناه فيها مغزى، ونظرته جذابة. وتصاعد اللون الى وجهها، وبجهد أدارت رأسها عنه، لتنظر الى البحر.

- اعيش في رافنسكراج. وهناك ممر في المنحدر إلى هنا، لا يعرفه سوى جدي وأنا.

- وهل جدك هنا معك؟

- لا، لقد مات.

- انا آسف... وهل كنت تسكنين معه؟

- أجل، كان كل عائلتي.

- ايتها الطفلة الصغيرة المسكينة!

- أنا لست طفلة. انا داماريس ترهران.

وحدق بها الغريب غير مصدق:

- داماريس ترهران؟ أنت تمزحين؟.

- لا لست أمزح! السير هيوغ ترهران جدي.

ولكن بالطبع أنت زائر، ولم تسمع بعائلة ترهران.

وأطلق صفيراً منخفضاً، وجالت عيناه فيها من خديها البرونزيتين إلى قدميها الحافيتين، بدهشة ظاهرة.

- داماريس ترهران... اللعنة عليّ. آسف، لم اقصد أن اكون فظاً. لقد سمعت بعائلة ترهران، في المزرعة حيث أقيم. الجميع يتحدثون عن وفاة السير هيوغ المفاجئة. ولكن مما سمعته اعتقدت ان الآنسة داماريس كبيرة ناضجة وهي «الليدي» في المزرعة.

- أنا ناضجة... عمري ثمانية عشر. هذا الثوب اصبح قصيراً عليّ... وأنا... أنا... اردت أن ارتدي ثوباً اسوداً، ولكنني أبدو مختلفة عندما أرتدي ثياباً أنيقة. وبالطبع أنا لا أرتدي افضل ثيابي وأتنزه مع الكلبين على الشاطىء.

- طبعاً... واعتذر مرة أخرى. وأنا متأكد أنك تبدين اكثر جاذبية عندما... تكونين مرتدية ثيابك اللائقة.

ولم تحب لهجة كلامه، فقد شكّت في أنه يسخر منها. ألا يزال لا يصدقها؟ وتابع التفرس بها بدهشة حتى أنها بدأت تغضب، وبينما هي تفتش في مخيلتها عن كلمات لتضعه عند حده، فمع كل ما قاله وما فعله لا يزال دخيلاً على أرضها. ونبح تريس، بعد أن شعر أنه جلس هناك لما يكفي، وأن سيدته نسيتها، وقد ظهر غراب كبير على مقربة منه، ولكن الكلبين كانا مدربين جيداً بحيث أنهما لا يتحركان إلا بإذن. وأمرتهما داماريس «هيا... اذهبا من هنا».

وانصرفت سول بعيداً كالسهم، وكأنها شهاب أسود عبر أشعة الشمس، بعد أن شاهدت الغراب يطير، ولكن تريس المتيقظ أكثر تمهل وهو يرقب الغريب بريبة. فقالت له داماريس:

- إنه صديق يا تريس.

ومد الرجل يده إليه مشجعاً «تعال هنا». ولكن تريس أخذ يشمها بريبة، ولكن الغريب لم يتقدم ولم يتأخر. واستمر تريس بالشمشمة، وشمل تفحصه الحذاء والساقين، ثم اكتفى، وحرك ذيله ببطء ثم ازدادت حركته، ثم لعق الأصابع السمراء الممدودة إليه.

- ماذا دعوتيه؟ تريس؟ إنه اسم غريب لكلب.

- إنه اختصار اسم تريستان وزميلته اسمها ايسولد اسمهما مأخوذ من قصة واغنر.

- اجل أعرف القصة. المكان هنا ملىء بالأساطير عن الملك آرثر. تتناغل اليس هذا اسم المكان الذي كان فيه قصر الملك مارك، نصفه في البحر ونصفه

على اليابسة. تاج من البروج... يجب ان أزور هذا المكان.

- لم يعد هناك بروج.

كانت نصف مأخوذة ونصف نافرة من رفيقها. وكانت على وشك ان تسأله عن اسمه، عندما لاحظت جرحاً على ذراعه ينزف.

- أنت مصاب... هناك دم على ذراعك.

فنظر الى الجرح دون اهتمام وبدأ يمسح الدم بمنديله. وراقبت داماريس ما يفعل على كره منها.

- يجب أن تعتني بالجرح... سأدلك على الطريق ثم تضع لك كاري ضمادة عليها.

- إنه جرح طفيف - سأغسله بماء البحر إنه مطهر فعال كما تعلمين.

- اجل ولكن هذا سيجعل الجرح يؤلمك.

وانحنى نحو فتحة بين الصخور ملأها المد بماء البحر، واثبتت تكشيرة الالم على وجهه صدق تحذيرها. وقال لها وهو يتابع عمله:

- من هي كاري؟

- إنها الآنسة كاري، مربيتي، أدعوها دائماً كاري.

ونظر اليها ولمعت عيناه.

- يا إلهي، وكأنك من العصور الوسطى! لماذا لم تذهبي إلى المدرسة؟

- ليس هناك مدرسة مناسبة في الجوار وجدي لم يرغب في مفارقتي، إضافة إلى أنه... أنه لا يوافق على تصرفات الشبان العصريين. قال ان ليس لديهم اخلاق ولا مبادىء او شعور بالمسؤولية.

وبدأت تسرد آراءه بمزيج من التزمت والتأكيد. من الواضح أنها تؤمن بصدقها تماماً. وجلس الرجل وهو يراقبها بينما كانت تتضح أمامه صورتها

الطفولية. لقد رُبيت وكأنها راهبة صغيرة.

- لا بد أن جدك كان محافظاً متطرفاً، ولكن هذا لا يعطيه الحق بأن يتركك في جهل مطبق.

- ولكنني لست جاهلة... كاري معلمة جيدة وعندها كل أنواع الدرجات العملية والأشياء الأخرى. إنها تقول انني متفوقة في التاريخ، واللغات، والانكليزية ولكن ليس في الحساب، إنه نقطة ضعفي.

- نادراً ما تكون النساء بارعات في الحساب. فالأرقام تستوجب المنطق. وأين المرأة من المنطق؟ ولكنني لم أكن اشكك بقدرتك العلمية، يا طفلتي، ما كنت اعنيه أنك تعرفين أكثر بكثير عن الانكليز القدماء مما تعرفينه عن الجنس البشري.

- أعرف كل شيء عن الجنس البشري.

- اي أنك تعرفين أنني كائن بشري، كائن عصري، وأنني أمثل سلالة عصر، أبعدوك بكل عناية عنه.

وجفلت، لم تعرف ما إذا كانت فطة معه ام أنه يسخر منها، فقالت:

- لم أقصد أي شيء شخصي...

- أنا متأكد من هذا.. حسناً هل اعطيك انطباعاً بأن لا أخلاق عندي، أو شعور بالمسؤولية، او مبادىء؟

ووقف، وفتح ذراعاه ونظر إليها، داعياً اياها لتفحصه. وقامت بحركة ارتباك بيديها.

- وكيف لي أن اعرف؟ لم أعرفك سوى من خمس دقائق ولا أظن انك مؤدب لانك تحاول تحوير ما أقول.

وضحك بمرح . . فهذه الغريبة لديها شخصية!

- ألم ترغبي أبداً بالثورة على هذا الوضع.

- ولماذا أثور؟ لقد كنا سعيدين معاً، جدي وأنا. لم نكن نرغب بأحد معنا.

وارتعدت شفتاها وادارت وجهها بعيداً حتى لا يرى دموعها. وقال بلطف:

- والآن. . . ماذا ستفعلين بحياتك؟

- لا شيء، أنا بانتظار ابن عمي مارك.

- فعلاً؟ ومن هو ابن العم مارك؟

- مارك ترهران، إنه البارون الجديد. إنه في أميركا الجنوبية، وأنا مخطوبة له.

- أنت ماذا؟

- مخطوبة لأتزوجه، كان هذا ضمن وصية جدي.

- يا إلهي العزيز! . . .

وبدا مأخوذاً بالدهشة حتى أنها حدقت به باستغراب وبدأ يقول:

- ولكن طبعاً. . .

وتوقف، وتفحص نفسه، وابتسم لها ابتسامة جانبية وتابع.

- لقد قابلت خطيبك، طبعاً؟

وهزت رأسها بالنفي «لا. . . أبداً».

- يعني أنك تقولين إنك قبلت أن تُخطبي إلى شخص غريب تماماً؟

- إنه ليس غريباً، إنه من العائلة. شخص له نفس اسمي لا يمكن دعوته بالغريب. . .

قالت هذا مدافعة عن مارك كما دافعت عنه أمام هيلين، ثم تطلعت إليه دون أن تثق به وتابعت:

- ولكنك لن تفهم. فقد قال جدي إن الناس هذه الايام لا يؤمنون بالتقاليد.

وابتسم ثانية، وكانت ابتسامته هذه المرة كاملة وفاتنة. وقال:

- ليس لهذه الدرجة. . . على كل المرء لا يتوقع من حورية أن تخطب لبشري. هل تخبريني عن الأمر؟

وأشار إلى حافة صخرية وجلس، وجلست إلى جانبه قلقة قليلاً. وهي تجذب طرف فستانها بحذر نحو ركبتيها. كانت متشوقة لأن تروي قصتها. ستشعر بالراحة بأن تروي كل شيء. حتى ولو كان رفيقها حتى الآن لم يظهر أي تعاطف معها. وأنهت سرد قصتها بالقول:

- وهكذا ترى أن من واجبي أن أتزوج ابن العم مارك.

- كم هذا رائع بالنسبة له، ولكن يا طفلتي، إنه وضع مستحيل. لقد أمضيت كل حياتك مسجونة هنا دون لقاء أحد من عمرك. وأنت جاهلة تماماً بالعالم وطرق العيش فيه. وليس عندك خبرة بالرجال او النساء، بينما هذا المارك. . . هل تعرفين كم عمره؟

- ليس بالضبط. . . ولكنني أعتقد أنه في اواسط عمره.

- أوه! . . ألا ترين، سيكون حقيراً لو أنه استغل جهلك وبراءتك ليلزمك بهذه الصفقة السخيفة كي يحكم قبضته على الأملاك واللقب.

- إنها ليست سخيفة أبداً، وأنا احب الرجال الأكبر مني سناً.

- ولكنك لم تعيشي يا طفلتي بعد، وهو قد يكون... عاش كثيراً جداً...

وبدت عليها الحيرة، وقالت:

- لا أعرف ماذا تعني، ولكن بالطبع جدي يعرف ما هو الأفضل لي، لقد قال إن ابن عمي مارك سيعتني بي.

وتحرك رفيقها وقد بدا عليه قلة الصبر وسألها ساخطاً:

- إذاً انت تستعدين لأن يستلمك رجل عجوز من رجل عجوز آخر. ولا حاجة بك لمن يعتني بك لو كنت فعلاً لم تنضجي بعد، كما وأنك امرأة راشدة تقف على رجليها.

ودون شعور نظر كلاهما الى قدميها النحيلتين الحافيتين، بدتا رقيقتان وطفوليتان، اصابعها السمراء غارزتان في التراب، وأزعجه منظرهما فسألها بقسوة:

- ألا ترتدين حذاء؟ قد تجرحين قدميك على الصخور البارزة.

- أوه... أجل، حذاءي هناك. ولكنني إذا لم أتزوج ابن العم مارك سأضطر إلى ترك رانفسكراج وهذا ما قد يحطم قلبي.

- أعتقد أنه لم يظهر لك بعد أن ابن عمك قد يحطم قلبك؟

والتقت عيناها الخضراوان الرماديتان بعينيه بنظرة متحيرة.

- ولماذا يفعل هذا؟

- لأنه لا يحبك، واذا تزوجك فبدافع الواجب فقط، فلا أمل لك بالسعادة.

واتسعت عيناها من الفزع وقالت:

- ولماذا لا يحبني؟ هل أنا بشعة؟

- لا... فأنت بعيدة عن البشاعة، ولكن الحب لا يأتي بالأمر، والزواج المدبر قد يكون كالجحيم.

وابتسمت مع قليل من الانزعاج وسألته:

- هل أنت متزوج؟

- لا سمح الله: فأنا أحب حريتي كثيراً.

- إذاً، لا تستطيع أن تكون حكماً في المسألة، فأنت... أنت... آه...

وفتشت في ذهنها عن كلمة مناسبة تصفه بها، وساعدها كثرة قراءتها فقالت منتصرة:

- انت عابث.

وبذل جهداً كبيراً ليخفي تسليته. ومال إلى الصخرة وراءه ونظر إليها بكسل من خلال عينيه النصف مغمضتين، وفكر: إنها مشكلة لابن العم مارك، ولكنها مشكلة لها مكافأتها إذا حُلت ألغازها، ولو كان لديه الوقت الكافي والصبر، هو شخصياً ليس رجلاً صبوراً. شيء ما في تعابيره جعل داماريس قلقة قليلاً، فنفضت رموشها وادارت وجهها. وقال لها فجأة:

- اقبلي مني نصيحة... انسي كل شيء عن... هذا... الابن العم المسن، واخرجي للعالم وامرحي مع شبان من عمرك، وأحبي شاباً طويل الشعر، يكون مثلك في عدم الخبرة.

كان في صوته رنة مرارة.

- ولكن ذلك يعني أن أترك رانفسكراج، وأنا لا اظن أنني قد أحب هذا وابن العم مارك سيناسبني تماماً، اذا كان لطيفاً!

- لطيفاً... وهل اللطف هو كل ما تطلبينه من الزوج؟

- إنه أكثر شيء له أهمية. أنا أرجو أن يكون مثل جدي، وأن أقدّم له كل الاشياء الصغيرة التي كنت أقدّمها لجدي.

- أن تملأي كيس مياهه الساخنة، وتدفئي له خُفيه؟

والتقط حجراً وضربه بقوة على الصخور بحنق ووحشية.

- يا الله... كم أنت لا زلت طفلة! ما تعانين منه حقاً هو حاجتك إلى أب، أو بالأحرى عقدة الجد.

ونظرت إليه وهي لا تفهم شيئاً، لجهلها بالتحليل النفسي، ولكن ما قام به، لفت نظرها إلى قدوم المد فقالت له وهي تنهض على قدميها:

إذا كنت لا ترغب في أن تبتل، فالأفضل أن تذهب. سأدلك على الطريق إلى فوق.

وتحركت لتستعيد حذاءها، ولحق بها. كانت ساذجة، عديمة الخبرة، حبها فقط لذكرى جدها يرشدها، ولذا كانت شديدة القابلية للعطب، ولم يشأ أن يزعزع إيمانها المطلق. إنها فتاة لطيفة، طفلة مسلية، وبالإمكان خداعها، ولكنها طفلة.

وصفّرت داماريس لكلبيها، فأتيا راكضان اليها استجابة لدعوتها، وبصمت سارت امامهما صعوداً في الممر الضيق، الذي قاد إلى درجات صعبة خلف صخرة كبيرة مخفية عن العيون إلا للمراقب الحذق. على قمة الصخرة اختفى الممر في غابة من الأشواك وشجيرات مزهرة، أزاحتها قليلاً لتكشف عن ممر أقدام ضيق، يتعرج عبر الأحجار المتساقطة من أعلى. وتابعت طريقها بثقة المتعود على الطريق، بينما يتبعها الكلبان. وذهنها يدور ويفكر.

لقد هز هذا الغريب ثقتها بمستقبلها، هل صحيح أنها تنظر إلى مارك كنوع

آخر من جدها، يستلم أمورها من حيث تركها السير هيوغ، بينما قد يثبت أنه شيء مختلف تماماً؟ ربما يكون مثل هذا الشاب، ويظن أنها لا تزال طفلة تحت رعاية مربية، ولا تناسب أن تكون سيدة رافنسكراج؟ ثم تذكرت أن رفيقها ينتمي إلى جيل طالما حذروها منه، ولديه قيم مختلفة تماماً. وليس لديه أية فكرة عما تعنيه المزرعة وتقاليدها لها ولابن عمها مارك، وراثة مشتركة، هي بمثابة رباط بينهما. ومارك ايضاً قد لا يفكر في أن يخالف رغبات جدها، وقد يفهم بأنها لن تتردد بأن تفعل هذا.

لذا فإن الاقتراح بأن تخرج إلى عالم مجتمع الشباب العصريين، يثير رعبها، ومن الأفضل بكثير ان ترضى بابن عمها، وتأمل بأن يرعاها كما كان يفعل السير هيوغ.

آخر جزء من الممر انتهى إلى ما بين صخرتين شديدتي الانحدار، ثم ظهرا من طرف الشق، تحتهما كانت المياه تغطي المكان الذي كانا يجلسان عليه، وامتد البحر لامعاً تحت أشعة الشمس إلى الأفق، حيث لا بد أن مارك سيأتي منه قريباً ليطالب بها.

وقالت وهي تشير عبر حقلين يقع المنزل بينهما أمام مجموعة من الأشجار:

- منزلنا هناك...

وانطلق الكلبان وهما مسروران من نهاية تسلقهما للمنحدر نحو المنزل وتابعت قولها:

- هل ستأتي معي؟

- لا، شكراً لك. لقد تركت سيارتي بعيداً عن المزرعة، وأنا لست في حالة مناسبة للقاء... مربيتك.

ونظر إلى قميصه الممزق، فأسرعت تقول:

- أوه، كاري لن تمانع، فهي معتادة أن تراني عائدة وانا في حالة مزرية، وستضع لك شيئاً على خدوشك.

- ولكنني لست أنت، وعندما أزور أحداً، احب ان اكون مرتدياً ثياباً مناسبة، وأعتقد أن منزل المزرعة فيه رسميات، ويجب أن يُعامل باحترام.

وتنهدت «إنه ليس في حالته الرسمية هذه الأيام، لقد أصبح في حالة فوضى قليلاً، فالسير هيوغ في شيخوخته لم يهتم بإعادة ترتيبه، مفضلاً المحيط القديم الذي اعتاد عليه».

- حقاً؟ إذاً فالمالك الجديد أمامه عمل كثير ليشغله.

- أتمنى ان لا يغيّر شيئاً... سأكره هذا بالتأكيد.

- التغيير هو سنة الحياة. وستتغيرين أنت أيضاً.. فلا يمكن ان تتوقعي من مكنسة جديدة أن لا تنظف جيداً، وهذه الحقول هناك مُهمَلة وبحاجة إلى تنظيف وإعادة زرع.

كان وهو يتكلم ينظر من حوله بعين متفحصة وقد تركز انتباهه حيث ينظر، وجاء دورها لتتفحصه من الواضح أنه يعرف شيئاً عن الزراعة، لا بد أنه مزارع، ولاحظت الآن أنه ليس شاباً للدرجة التي اعتقدتها. فهناك تجاعيد صغيرة حول فمه وعيناه الزرقاوين. لا بد أنه أصبح اسمراً تحت شمس أقوى من تلك التي تشع في بريطانيا، ربما كان يعيش في الخارج. وقررت أنه لا بد أن يكون في الخامسة والعشرين على الأقل، أي أنه يسبقها في النضوج. وعادت عيناه باتجاهها لتلتقيا بنظرتها المتفحصة، وسألها «ما الأمر؟».

فاحمّر وجهها واحنت رأسها وقالت كاذبة:

- لا شيء، كنت أتساءل كم عمر ابن العم مارك بالضبط.

- اتخشين أن يكون في سن الخرف؟

- لا تكن سخيفاً، ولكن لا بد أنه فوق الثلاثين، وهذا سن متقدم، أليس كذلك؟

وضحك، وقال موافقاً:

- أجل، ولكنني أؤكد لك أن الرجال في الثلاثين أو الأربعين يبقون أقوياء.

- لقد كان جدي قوياً في السبعين من عمره.

- ليس بالطريقة التي عنيتها.

وتقدم منها وأمسك بذقنها ورفع رأسها إليه.

- انظري اليّ.

ورفعت ببطء رموشها السوداء الطويلة وكأنها مسيّرة بفعل جاذب مغناطيسي لا تقدر على مقاومته، لتلتقي بنظراته. كانت عيناه أضيق من عينيها، يحيط بهما رموش، بنفس كثافة وطول رموشها، وتسارعت دقات قلبها، وشعرت بالدم يتصاعد الى وجنتيها.

- لك عينا ساحرة، وستصيبين أحد مما بضرر من جرّائهما قبل أن تدري... لقد بدأت أحسد ابن العم مارك.

وشعرت بمثل تيار كهربائي يسري فيها، ليتبعه رد فعل سريع، شعور عذري بالإساءة على أثر الغزل فدفعت يده عنها، وقد التمعت عيناها. وقالت:

- لماذا.. لماذا تقول هذا؟

- إنه تشجيع لك، أردت أن أظهر أن هناك في الدنيا رجال غير جدك.

- حتى ولو كان هناك، فلا أريد معرفتهم!

فابتسم ساخراً وقال: «إذاً سأذهب.. وداعاً يا حورية!».

وابتعد عنها، مبتعداً فوق المرج، ووقفت تراقبه، وقد أربكها اضطراب مشاعرها التي أيقظها كلامه ووجوده، ولم تدرك، إلا بعد أن كان يتسلق المرتفع المقابل لها بأنه لم يخبرها عن اسمه. وفكرت أن الأمر غير مهم، فهي لن تراه ثانية، واستدارت نحو المنزل، وحاولت إقناع نفسها بأنها مسرورة أن الأمر انتهى عند هذا الحد، فهو لا يتناسب مع عالمها الصغير المغلق، فكلماته، وأفعاله، كانت مزعجة لها. وقررت أنه لم يعجبها. ولم تذكر الحادثة أمام هيلين التي قد تستهجنها. لقد حرّم عليها دوماً أن تتحدث مع الغرباء. وتلك الليلة حلمت أنها كانت معه ثانية على الصخور عند الشاطىء، وكان يوماً عاصفاً وكانت خائفة من البحر الهائج، إلى أن أخذها بين ذراعيه وهو يقول:

ـ لا تخافي، ستكونين دوماً بأمان معي.

وهذا الكلام طبعاً منافٍ للعقل، لأن حُماتها الطبيعيين هم جدها وابن عمها، وليس ذلك الغريب أبداً.

* * *

بعد وقت قريب، عاد السيد بريستون لزيارة رافنسكراج، وأتى معه بأنباء مقلقة. فقد اتصل بالسير مارك ترهران، وقررا بينهما أن تمضي داماريس سنة في الخارج، في مدرسة لمرحلة نهائية في سويسرا، وكوصي عليها، وافق المحامي على الفكرة، فهذا ما تحتاجه هذه الطفلة تماماً، الرفقة مع الشباب من أمثالها وتعلّم اللياقات الأجتماعية.

وعلقت هيلين كارو بشكل لاذع على الأمر، بالرغم من أنها وافقت كلياً عليه، قائلة:

ـ أي أنها ستُعد لتصبح لائقة بالمركز الذي ستملأه يوماً؟

ورفعت حاجباها بالتساؤل في وجه الرجل، ولكنه قال دون أن يلتزم بتعليقها:

ـ من الممكن ان يكون كذلك.

وتلقت داماريس الخبر برعب وبثورة ظاهرة واحتجت قائلة:

ـ لن أذهب. ولا تستطيعون إجباري، سأكون بائسة بين العديد من الفتيات الغريبات.

وردت عليها هيلين:

ـ بالطبع ستذهبين، إنها خطة ممتازة، وستعلّمك الوقوف على رجليك معتمدة على نفسك.

ونظرت داماريس إلى رجليها، ورأت مكانهما، رجلين حافيتين وتذكرت صوتاً كسولاً ساخراً يقول لها «امرأة راشدة تقف على رجليها» ونظرت الى السيد بريستون نظرة شك وقالت بغضب:

ـ أعتقد أن ابن العم مارك يظن أنني جاهلة وقليلة التجربة، ولن يتزوجني كما أنا.

وقال المحامي وهو يلّطف من خاطرها «انت لا زلت صغيرة... وهناك وقت كثير قبل ان تأخذي قراراً حاسماً. وستجدين أن التدريب في المؤسسة سيفيدك جداً في المستقبل».

ولكنها، صممت على رأيها، وليس هناك أي خيار آخر. وأعطاها كتيباً أنيقاً بشرح الفرص التي ستتاح أمامها في أكاديمية مدام لوبرون للفتيات الشابات. وأخذته داماريس وألقته ارضاً وقالت له بازدراء:

ـ إذا كنت جيدة بما فيه الكفاية لجدي فأنا جيدة كفاية لابن عمي مارك دون تصنّع.

شعرت بالألم لأن خطيبها لم يتصل بها بنفسه بل ترك كل الترتيبات للمحامي، الذي يبدو أنه لا يعرف حتى أين هو.

وتنهد السيد بريستون. فطبع آل ترهران الغاضب معروف جيداً في تاريخ مكتب بولدراك وبريستون للمحاماة، والذين أداروا شؤون رافنسكراج لعدة أجيال.

والتقطت هيلين الكتيب وقالت بغضب:

ـ لا تكوني سخيفة هكذا داماريس، أنت بحاجة لأن تتعلمي كيف تلبسين وكيف تكرمي الناس. هذا المكان هو أكثر من مدرسة. سوف يعدّونك لحياة يتوجب على ليدي ذات لقب أن تعيشها. فالسير مارك لن يكون منعزلاً عن الناس كما كان جدك. سوف يتوجب عليك إقامة حفلات عشاء، وحفلات كوكتيل، وربما حفلات عائلية، او أن تفتتحي معارض، وأن تشاركي في الجمعيات.

كانت تسرد عن قصد كل الأمور التي تستطيع تذكرها على أمل أن تهوّل عليها الأمر. فقالت داماريس:

ـ أوه! أرجوك. كم هذا فظيع!.

ـ سنة في الخارج ستعطيك الثقة بنفسك.

في سرها، كانت هيلين تأمل أن يكون السير مارك يسعى إلى طريقة للتخلص. واثنا عشر شهراً في سويسرا قد يؤخرون المسألة، وفي نهاية المدة، قد تصبح متشوقة لرفض الخطوبة. وهذا سيترك له مجالاً للتراجع بكرامة. وهو لم يقترح أن يقابل الفتاة، مما يشير إلى أنه غير متحمس للزواج. وشعرت داماريس بالإهانة من تنكره لها. فقد كان عليه أن يراها قبل سفرها الى الخارج، ليعطيها الراحة والاطمئنان اللذان من المؤكد أنه يعرف بأنها تحتاجهما. وبرزت لها فكرة مخيفة بأنه بكل بساطة لا يهتم بها. واستيقظ فيها

الكبرياء، ستجعله يهتم بها، ستعود متزنة وأنيقة حتى ليضطر أن يعترف بأنها تشكل اللايدي ترهران المثالية.

ـ حسناً... سأذهب. وسأجعله فخور بي.

وقالت هيلين مستحسنة «هكذا تكون روح التحدي».

وتنهدت داماريس بوجل وقالت:

ـ ولكن الكلبان! لقد نسيتهما. لن يكونا سعيدين هنا من دوني. سيبقيان محبوسين معظم الوقت، وليسا متعودين على الحبس. لا أستطيع ان أتركهما.

ـ سآخذهما أنا...

على الرغم من أن هيلين تحب تريس وسول، إلا أنهما ضخمين، وسيشكلان إزعاجاً لها في أملاك صديقتها المحدودة.

ـ أوه.. هل ستأخذينهما يا كاري، وتأخذينهما ليتمشيا كل يوم؟

ـ أجل... اطمئني من أجلهما.

وقالت داماريس، وقد أدركت الآن أن ليس أمامها مجال للتراجع «شكراً لك».

وقال السيد بريستون:

ـ السيد غارث سيعتني بالمزرعة، والسير مارك سيعين وكيلاً إلى أن يصل ويتولى أمورها بنفسه.

وقالت لها هيلين:

ـ ماري وأنا سنرحب بك جداً إذا احتجت إلينا.

قالت هذا لاعتقادها أن الحاجة قد تبرز يوماً ما. وماري بروك، هي صديقتها التي ستعيش معها وردّت داماريس، بشيء من التحدي:

- شكراً لك، رافنسكراج ستبقى دوماً منزلي، وساعود لأتزوج ابن العم مارك.

وأجابتها هيلين بسرعة «أجل.. بالطبع».

وتبادلت النظرات مع المحامي، فكلاهما يشك بصحة هذا القول.

ولكن داماريس لم يكن لديها شك أبداً حول مصيرها النهائي، كانت مقتنعة تماماً أنها ستعود لتصبح عروساً لابن العم مارك، الذي ستستعد له في سويسرا، دون ان يكون قد وقع نظرها على زوج المستقبل.

٢ - احذري من الغريب!

مدام لوبرون، تدّعي أنها سليلة مدام فيغي لوبرون التي كانت رسامة بلاط ماري انطوانيت. مثبتة هذا الأمر بمذكرة الامتياز الضرورية لتكون رئيسة اكاديمية الفتيات الشابات الباهظة التكاليف. وهذه الاكاديمية تقع في ما كان قديماً دير قديم على شاطىء بحيرة ليمان، غير بعيد عن جنيف. وتستضيف بنات الأثرياء، اللواتي يرغبن في أن يصبحن مؤهلات لدخول عالم الثراء والأزياء، وتلميذاتها كلهن من الشابات الصغيرات في أواخر مراهقتهن اللواتي يمررن في مرحلة الإعداد للحياة الاجتماعية.

منهاج الدراسة يركز على اللغات، والسلوك، والرقص، وعلى رياضات يكون العلم بها له فائدة اجتماعية. ترتدي الفتيات خلال النهار تنانير وبلوزات بسيطة، إذا لم يكن في لباس الرياضة، ولكنهن يرتدين ملابس لائقة للعشاء الرسمي في الأمسيات، كجزء من تدريبهن على الاتيكيت، ولا يجري تجاهل الجانب العملي. وتتعلم الفتيات كيف يضعن ألوان الطعام، وأشياء اخرى مثل الشراب المناسب لكل مناسبة، وبالطبع كيفية التصدر في المجتمعات المخملية.

كان في استقبال داماريس ترهران على المطار سيارة المدرسة، بحضور مربية. ونزلت من الطائرة تحمل حقيبتها اليدوية وهي تشعر بالخوف. حقيبتها الأخرى، والتي كانت تحتوي على عدد كبير من الملابس حسب القائمة التي

www.elromancia.com

أرسلت إلى هيلين، كانت قد سبقتها. وشعرت داماريس بالخجل والإرباك ولم تتمتع برحلتها الجوية الأولى. السيدة التي قدمت لتستقبلها، تطلعت إليها بلهفة. فالوصف الذي أعطته مدام لوبرون عن داماريس جعلها تعتقد أنها فتاة مستهترة، ولكنها بدت هادئة، وأخلاقها ممتازة، وشعرت المرأة بالراحة فلن يكون هناك صعوبات معها.

كان الوقت مساءاً في اوائل الخريف. والفصل الدرامي يبدأ في نهاية أيلول، بعد عطلة صيفية طويلة، وظهر فوق البحيرة ضباب متصاعد حجب قمم سلسلة الجبال الطويلة. سارت السيارة عبر طريق مرصوف، حيث التقطت نظرات داماريس منظر المنازل التي تشبه «الشاليه» والنوافذ والحدائق المليئة بالزهور، وسألتها المربية بالفرنسية «إنها جميلة أليست كذلك؟». وسرت جداً عندما حاولت داماريس أن تجيبها بنفس اللغة. لهجتها لا زالت بحاجة إلى تصحيح، ولكن من الواضح أنها تعرف اللغة، وليست خائفة من محاولة التحدث بها.

عند وصولها، أرشدتها إلى غرفة تشبه الصومعة. في الواقع كانت صومعة راهبة، مفروشة بأثاث فاخر بستائر وأغطية على السرير الديني الطراز. الأثاث كان من الخيزران المجدول المدهون بدهان فاتح، والخزانة مثبتة في عمق الجدار، وجدران البناء القديم كانت سميكة جداً، ولها زجاج طويل على الباب، وكانت حقيبتها موضوعة عند السرير، وقالت لها المربية:

ـ العشاء عند السابعة. ستغيرين ملابسك بالطبع، وسأرسل لك سيليست لتريك المكان. وستراك المدام في مكتبها بعد العشاء.

وتركت القادمة الجديدة المرتبكة لوحدها، مع توقعها لرؤية طاولة مليئة بالوجوه الغريبة، وبدأت بإفراغ حقائبها، وقلبها يرتجف، خائفة مما ينتظرها.

فتيات غريبات، فتيات من عمرها لا تعرف كم عددهن، ولم تكن قد اختلطت بأي منهن من قبل.

وقرع الباب، ودخلت شابة. كانت ترتدي ثوباً من الشيفون الزهري، استعداداً لوجبة الطعام، وشعرها الأسود مجعد باتقان فوق رأسها، وبدت أكبر من عمرها حتى أن داماريس ظنت أنها مربية أخرى.

وقالت بمرح «بونسوار، صغيرة.. لا تنظري إليّ هكذا وكأنني سآكلك! أنا سيليست دوفالموند وأتمنى أن نصبح صديقتان».

وأجابت داماريس وقد اعجبتها سيليست:

ـ وأنا ايضاً أتمنى ذلك.

ـ هل ارتديت الثوب الأبسط لديك؟ انظري إليّ.. ثوبي يشبه ثوب فتاة في مسرحية، ولكن المدام ستحبه، فهو مختلف، اؤكد لك أنني عندما اعود الى البيت سألبس البنطلون والبلوّز ذات الياقة الواسعة... آه!

واخرجت داماريس ثوباً بسيطاً أبيض اللون فقالت الفتاة:

ـ آه... هذا سيعجب المدام. وستعطينها الانطباع الجيد، أليس كذلك؟ البسيه.

ما توقعته من محنة لم يعد يرهبها تحت جناح سيليست. وفي وقت قصير أصبحتا صديقتين.

طوال الفصل الأول، كانت سيليست درعها ومتراسها. التجاذب بين الفتاة الفرنسية المتألقة وبين الانكليزية المكبوتة كان تجاذب الأضداد، لأن داماريس كانت تقوم بكل شيء ما عدا التألق خلال أسابيعها الأولى، مع أن سيليست كانت تشير إلى أن وقتاً سيأتي وستظهر محميتها ما يدهشهم جميعاً. وأعلنت للجميع قائلة:

- إنها لا تملك عيون الشيطان دون طائل.

انتظروا، يا اطفالي إلى أن تثبّت قدميها.

وأخذت داماريس تفكر لماذا كل هذا التركيز دائماً على الأقدام، وتساءلت عما حصل لذلك الرجل الذي لفت انتباهها لأول مرة الى قدميها، وقال ايضاً إن لها عينا ساحرة، يبدو أن لا أحد في جوار رافنسكراج يعرف عنه شيئاً، على الرغم من أنها قامت ببحث سري عنه. أحياناً كانت تتساءل عما إذا كانت قد حلمت بكل هذه القصة.

رفيقاتها كن مزيجاً من جنسيات مختلفة، كانت الأكاديمية تستضيف الفتيات الثريات والأفضلية لسليلات الأسر، ولكن، أمام القيم المتغيرة في العالم العصري، لم يكن الارستقراطيون وحدهم من يملكون المال الوفير. وهكذا سعت المدام الى طبقة الأثرياء الجدد، إضافة إلى بضع تلميذات من العائلات القديمة، اللواتي تستقبلهن بأسعار مخفضة لأجل اسماءهن فقط. احداهن كانت سيليست دوفالموند التي يملك والدها قصراً قديماً خرباً في «هوت سافواي» ولقباً لم يعد يستخدمه. ولكن شخصاً ما كان يدفع لداماريس كامل الاقساط، هل هو ابن العم مارك، أم السيد بريستون؟ كان يبدو لها أن اللقب غير ضروري، ولكنه يلزمها بأن تفعل أفضل ما بوسعها. ولم يكن هذا أمر صعب، فقد تأسست على يد الأنسة كارو جيداً، والدروس سهلة عليها وهي رياضية ممتازة، ولكن الوجه الاجتماعي، شيء آخر.

كانت زميلتها اوديت لامونت تتبجح بشكل فاضح عن مغامراتها خلال عطلة الصيف. ولكن كل ما كانت تقوله بدا مصطنعاً ولم تنخدع به سيليست، وقالت لداماريس:

- هذه الفتاة عندها خيال واسع.

- ولكن لماذا تخترع هذه القصص.

وهزت سيليست كتفيها «لتخدع السخيفات وتجعل من نفسها بطلة رومانسية. نحن نقرأ كثيراً عن حياة الحرية، ولكن والدها ليس من الطراز الذي يسمح لها بأن تطبق ما تقرأه، أنا أعرفه».

كان الوقت قبل العشاء، وغيّرت سيليست ملابسها وقدمت إلى غرفة داماريس، بينما كانت تكمل زينتها، وقالت داماريس:

- أنا بعيدة عن كل هذه الأمور.

- ولماذا؟ كلنا نتوق إلى الحب.

- لا اظن أن معانقة وراء الباب، ستكون مثيرة كركوب الخيل في الريف.

- آه... صحيح أنك متوحشة صغيرة. لقد عشت كل عمرك مع جدك العجوز، لذا لا تعرفين معنى الحب.

- لقد قابلت شخصاً عانقني، ولكنني لا أعتقد أنه شيء شاعري. كل هذا التلاعب بالحب، هو... هو عمل رخيص.

واحمرت وجنتاها وهي تعترف، وقد تذكرت المشاعر التي أحستها على حافة ذلك المنحدر، وضمت شفتاها باشمئزاز. فقالت سيليست:

- إذاً أنت تنتظرين «الحب الكبير»؟ ولكنه لا يأتي لنا جميعاً. بالنسبة لي سأرضى بشخص عادي يقدم لي الأمان والراحة.

- ولكن لا بد أن عندك رجل أحلامك؟ كيف تتخيلين حبيبك المثالي؟

- طويل وأشقر، ليس صغيراً في السن، وأفضل رجلاً يعرف الدنيا.

- وهل تتوقعين أن تلتقي بفتى أحلامك؟

وعادت سيليست إلى طبعها فضحكت بخشونة:

ـ ولا بأمل ضعيف «شيري». أعتقد أن مثل هذا الرجل غير موجود إلا على صفحات الكتب... ولكن أنت... أليس لديك فكرة عن فتى أحلامك؟

ـ أوه.. أجل، إنه طويل أيضاً ولكن أسمر، بعينين زرقاوين لامعتين، لوّحته الشمس، جانب وجهه يشبه النسر، وله ابتسامة غريبة...

وتوقفت بارتباك، وقد شعرت أنها تصف الرجل الذي التقته عند المنحدر. وصاحت سيليست:

ـ انت محمّرة... هل هذا لأنك قابلتيه فعلاً؟

ـ ربما...

ـ وهل أعجب بك؟ هل وقع تحت قدميك؟

وقالت داماريس ضاحكة «لقد وقع تحت قدميّ، ولكنه لم يعجب بي، لقد اعتقد أنني ما زلت طفلة».

ـ كم هذا محزن! ولكن كل هذا سيتغير عندما يراك ثانية. فأنت لا تبدين كطفلة الآن.

والتفتت داماريس لتنظر إلى نفسها في المرآة وقالت:

ـ لا... لا أبدو كطفلة. ولكنني لن ألتقي به ثانية.

* * *

يوم عيد الميلاد تلقت داماريس هدية من هيلين كنزة صوفية مشغولة باليد، مع بعض الصور للكلبين برفقة ابن شريكتها ماري بروك، دايفيد. وقالت في رسالتها إنها التقت بالسيدة غارت التي تدير رافنسكراج، والتي قالت إن السير مارك يتردد على المزرعة ليراقب التصليحات فيها. وأرسل لها السيد بريستون بطاقة معايدة. وضمّن رسالته شيكاً بمبلغ كبير لتغطية المصاريف.

صباح الميلاد بعد أن عادت من الكنيسة، دهشت عندما شاهدت في غرفتها باقة زهور مغلّفة من القرنفل والورد، وكانت مرسلة من محل أزهار محليّ، وعليها بطاقة تقول «مع تهاني الميلاد» كذلك علبة صغيرة، فتحتها لتجد فيها سواراً فضياً تزينه قطع جالبة للحظ، ووجدت بطاقة كتب عليها «مع الأماني بأن تجلب لك هذه الحظ... م... م...؟».

م؟ هل يمكن ان يكون مارك؟ هل اعترف أخيراً بوجودها؟ وامسكت بالسوار وتفحصت كل قطعة على حدة: حذاء فضي، وتمثال القديس كريستوفر، طاحونة هواء، زورق، وقطعة نقد قديمة، ذلك النوع من الأشياء التي ترضي فتاة مدرسة. إذاً مارك لا يزال ينتظر أن تكبر.

وقرعت إحدى الخادمات الباب ودخلت الغرفة لتتأكد من استلامها الهدية. قالت إن الهدية وصلت باليد من نفس البلدة. إذاً، الأزهار من مارك ترهران. وكانت الخادمة مرتابة أن هناك معجب بها. فقالت لها داماريس:

ـ إنها من ابن عمي.

وعادت سيليست من العطلة وقدمت لها بعض المثلجات كهدية. ونظرت مباشرة إلى السوار التي كانت داماريس تضعه، وسألتها:

ـ هل هذا منه؟

ـ منه أجل، ولكن ليس الذي تقصدينه.

ـ داماريس، انت كالحصان الأسود، كم شاباً تعرفين؟

ـ ولا واحد... هذه من قريب لي.

كانت سيليست قد جلبت لها معها دعوة من مدام دوفالموند لقضاء عطلة الفصح في القصر. ولكن مدام لوبرون لم تسمح بهذه الزيارة دون سؤال السيد

بريستون، وأملت كثيراً أن يشير عليها بأن تعود إلى بلدها، لأن الوقت قد حان بالتأكيد لمقابلة ابن العم مارك، ولكنه رد بالموافقة على زيارة فالموند. مما أصابها بخيبة الأمل.

ولكنها نسيت كل خيبتها عندما جلست في سيارة الأجرة، صباح يوم ربيع مشرق، وقد اصبح الفصل الدرامي الشتائي وراءها، برفقة سيليست متجهتين إلى سافواي. وبدت البحيرة كالحرير الازرق تحت ضوء الشمس، وسط الحقول المليئة بالثلج وقد غابت الغيوم وظهر الكثير من جبل مون بلان. وقطعتا الحدود بعد أن تفحص رجال الجمارك حقائبهما، ثم بدأت الطريق بالتصاعد، مارة خلال تورون، وهي بلدة صغيرة على شاطىء البحيرة، ثم إلى غابات مرتفعة تقطعها منحدرات رائعة، وكانت كل الشاليهات ترتفع على جوانب التل وتحت الطريق كان النهر، وقد ارتفع من جراء الثلج الذائب، يجري بسرعة وهو يرتمي عبر الممرات الضيقة.

كان شانودو فالموند من الخارج وكأنه بناء من الأساطير، واجهته محاطة ببروج مستديرة، يقع على هضبة قرب الغابات تحتها القرية يحتضنها سهل واسع على طول ضفة النهر، وصاحت داماريس من البهجة لمرأى هذا المنظر، ولكن سيليست هزت كتفيها دون اكتراث وقالت:

ـ أستطيع القول إنه يبدو رائعاً، ولكنه من الداخل غير مريح أبداً. وأنا أفضّل الأبنية الحديثة، ولكن على الاقل لدينا ادوات صحية حديثة.

وصعدت السيارة الطريق المرتفع نحو القصر وتوقفت عند فسحة عريضة مفروشة بالحصى أمامه تماماً.

المنزل يواجه الوادي الذي قدما منه صعوداً، والمنظر الذي يشرف عليه رائع، وخلفه تمتد الغابات متصاعدة الى حدود السماء.

وخرجت داماريس من السيارة وتنشقت الهواء المعطر برائحة الصنوبر. كان الباب الأمامي الكبير مفتوحاً وخرجت منه مدام فالموند، لتحيتهما. كانت امرأة صغيرة الحجم، شعرها الأسود يتخلله الشيب فوق وجه شبيه بوجه النسر، وعلى الرغم من قصرها كان يبدو عليها سيماء النبل، ووقف الى جانبها كلبان ضخمان جلداهما الصفراوان يلمعان تحت أشعة الشمس. وصاحت سيليست «نابوليون، جوزفين!». واسرع الكلبان إليها فأخذت تداعبهما. وسألتها أمها:

ـ هل تحيين الكلبين قبل امك؟

فضحكت سيليست، وتركتهما لتقبل أمها، ولاحظت داماريس مدى التشابه بينهما، وقالت سيليست:

ـ لقد وصلا إليّ قبلك، امي.. هذه داماريس.

ـ آه.. كم أنت انيقة، أهلا بك يا عزيزتي الى فالموند

ومدت يدها، وأسرعت داماريس إلى مصافحتها وهي مسرورة، فالقول من قبل امرأة فرنسية إنها أنيقة اطراء جدير بالاهتمام، ويعني انها تقدمت كثيراً منذ أيام رافنسكراج!

غرفتها كانت في احد الابراج، ومليئة بالأثاث القديم، وسرير ذو اربع قوائم.

وقالت لها سيليست «أنا آسفة إذا بدا لك المنزل كمحل أثريات. ولكن كل شيء نملكه هنا قديم، والمكان كله يبدو كمتحف».

وقالت داماريس «أظن أنه جميل» وذهبت نحو النافذة وصاحت «يا للمنظر الجميل!». في الواقع كان للغرفة ثلاثة نوافذ في الجدار النصف دائري تطل على طول الوادي، والتلال المليئة بالأشجار ترتفع على جانبيه.

وقالت سيليست مترددة:

- لم أخبرك من قبل، لم أرغب في ان تعرف مدام لوبرون، ولكن.. حسنا الحقيقة، أننا نؤجر غرفاً خلال أيام الصيف... وهذا يساعدنا... فالبيت كبير، وهو فارغ معظم السنة.

- ولماذا لا.. إنه شيء يفعله الكثير من الناس في هذه الأيام. هل عندكم ضيوف الآن؟ آمل ان يكونوا أشخاصاً لطفاء.

- قالت امي إنهما انكليزيان، يدرسان علم الغابات. لم اشاهدهما بعد، ولكنني آمل معك أن يكونا لطيفين. أنت تعرفين أن والدي في الحقيقة هو الكونت دوقالموند، ولكنه لم يستخدم اللقب منذ الحرب، وهو يقول إن اللقب والمستأجرين لا يتوافقان.

وجلست داماريس على السرير الكبير وضحكت:

- كل شيء هنا رائع يا سيليست، مثل القصص الخرافية، وأتمنى فقط أن يتناسب ضيفاكما مع الصورة.

- على الاقل هما رجلان. الصيف الماضي كان عندنا امرأة عجوز، سائحة، تسأل باستمرار أسئلة مضجرة، أتمنى ان لا يكونا أصلعين وسمينين.

- لا اظن أنهما كذلك إذا كانا تلميذين في علم الغابات.

- اجل.. واي شيء يتعلق بالغابات يبدو لي رومانسياً.

عند تناول طعام الفطور، بعد وقت قصير من وصولهما، لم يكن حاضراً سوى العائلة، لأن الضيفان كانا معتادان على قضاء النهار في الخارج، ولا يحضران إلا وقت العشاء.

ووجدت داماريس أن مضيفها لطيف لدرجة محرجة. بقسماته الملوكية الارستقراطية البارزة، وجسمه المستقيم الطويل، وكان مسروراً لاكتشافه أنها تتكلم الفرنسية التي جرى معظم الحديث بها. وتقبلت بابتهاج عرضه بمرافقتها

لمشاهدة القصر بعد الطعام. وهكذا بدأ دوقالموند وداماريس جولتهما بالبيت نفسه أولاً، الذي كان ضخماً، والعديد من غرفه غير مستعملة، قاعة الرقص، المكتبة، ثم البهو بأعمدته التي تمتد على طول الطابق الارضي، حيث كانت صور عائلة قالموند المعلقة على الجدران المكسوة بالخشب، وتذكرت داماريس لوحات صور عائلتها في غرفة الطعام في رافنسكراج.

ثم خرجا ليتجولا في الحديقة، حيث الاسطبلات التي لم يعد فيها خيول، بل سيارة «رينو» قديمة. وقال لها السيد «كنا نملك في الماضي أفضل الخيول، ولكن الزمن يتغير، ولم اعد أستطيع ركوب الخيل».

- إنه مكان جميل.

- كان كذلك في الماضي. ولكن عندما أموت سيباع. سيليست لا تهتم به، كل همها العيش في المدينة، وليس لديّ ابن يرثني.

وذكرها هذا ثانية برافنسكراج حيث لا ابن ليرث لو أنها كانت صبياً، لأصبح المكان لها لتحبه وتعتني به.

عندما عادا، صعدت مع سيليست لتغيير ثيابها استعداداً للعشاء ولمقابلة الضيوف. ثم نزلتا إلى الصالون، حيث كان والداها ينتظران. واقتربت ساعة العشاء، ونظر والدها إلى ساعته وقال «لقد تأخر ضيفانا».

واعلنت أصوات أقدام مسرعة، أن الضيفان قد أدركا خطأهما، ودخل شاب إلى الغرفة وقال بالإنكليزية:

- كريستيان لن يتأخر أكثر من لحظة، لقد تعطلت السيارة ونحن في طريقنا إلى هنا، وهو متسخ قليلاً.

ونظر إلى سيليست بفضول، فأسرع والدها يقول:

- ابنتي سيليست... وهذا يا عزيزتي السيد غريف.

- كيف حالك يا آنسة؟

ومد دونالد غريف يده، وتبادلت داماريس النظرات مع صديقتها، لقد كان طويلاً وأشقر، ولكن إلى هنا يتوقف التشابه بينه وبين فتى احلام سيليست. وقال السيد دوقالموند «لن ننتظر أكثر وإلا سيبرد الحساء».

ومد يده لزوجته، وأسرع دونالد لتقليده ومد يده الى سيليست وسار الجميع إلى غرفة الطعام. واخذت داماريس تتساءل عما سيكون شكل كريستيان. كانوا قد انهوا تناول الحساء عندما دخل كريستيان، وأسرع السيد دوقالموند للتعريف.

- السيد كريستيان تريفور - الآنسة داماريس ترهران، ابنتي سيليست.

وانحنى كريستيان للحوريتين قبل أن يجلس، وقالت سيليست:

- مسيو تريفور أنا سعيدة باستضافتك.

- الشعور مشترك يا آنستي، ولكن أرجو أن تناديني كريستيان.

- حسناً، ولكن ناديني سيليست.

ورفع السيد دوقالموند حاجباه فاستدارت ابنته إليه:

- لا تندهش هكذا يا أبي، كل الشبان في هذه الأيام يستخدمون الاسم الاول. كريستيان، إنه اسم غير مألوف، أليس كذلك؟ سوف تتوافق مع داماريس فاسمها أيضاً غير مألوف.

والتفتت العينان الزرقاوان إلى داماريس، هاتين العينين الزرقاوين تبدوان مألوفتين لديها.

- أجل إنه اسم غريب، ولكنني سمعت به من قبل.

هل يعني بهذا أنه قد تعرف إليها؟ ولم يعط أية إشارة اخرى.

كريستيان تريفور، الاسم الذي كان يجب أن تعرفه من زمن طويل لو أنها كانت ذكية. فمن الطبيعي ان لا يكون له اسم عادي، واخذت تحمّر وتشحب، وهي تتذكر كل ما قالته له عن نفسها تحت المنحدر في رافنسكراج، كم يا ترى يتذكر من ذلك الحديث؟ لا عجب في أنه ضحك يومها من سذاجتها، لقد كانت طفلة بالفعل، ولكنها الآن وقد أصبحت أكثر حنكة، تستطيع أن تجابهه على نفس مستواه. لقد كان نحيلاً واسمراً كما كانت تذكره، ولكنه هذه الليلة حليق الذقن، ونظيف، ويرتدي بذلة قاتمة جميلة وقميصاً بلون الثلج. ولاحظت أن ما يرتديه غالي الثمن، ما عدا أن يديه تدلان على أنه ليس ثرياً كما تشير إليه ثيابه الأنيقة. كانتا خشنتان مثل يدا دونالد من جراء العمل بالفأس والمنجل، إذاً فهو عامل غابات في الواقع، على الرغم من أنه يختلف في المظهر كثيراً عن زميله.

لقد كانت ترغب في مشاركته الحديث، لتظهر له مقدرتها. ولكن بدا وكأن كل شيء تعلّمته قد هجرها، وأحست بالخجل منه، وسيليست لم تعطها فرصة.

بعد انتهاء تناول الحلوى، وقفت السيدة فالموند، وأشارت الى الفتاتين لتتبعاها، وقالت للرجال بكل تهذيب:

- ستنضمون إلينا لاحقاً لتناول القهوة.

وتبعت داماريس مضيفتها إلى الصالون، حيث ارتمت سيليست على الصوفا وهي تتنهد قائلة:

- السيد كريستيان لطيف جداً. امي، لن تقنعيني أبداً أنه يدرس الغابات.

- هكذا قال عن نفسه، ولم أطلع على اوراقه، وهذا غير ضروري طالما أن هنا ليس فندقاً، ولكنه يمضي كل وقته يعمل في الغابة، انت رومانسية جداً يا

طفلتي. أتظنين أنه أمير متنكر؟

- إنه يبدو كأمير.

- ليس هناك أمراء هذه الأيام، وحتى لو كانوا، فإنهم فقراء، ولكن هذا ليس فقيراً، كائناً من يكون.

- آه.. انت تثيرين اهتمامي.. سأحاول أقصى جهدي أن اكتشف كل شيء عنه.

داماريس أيضاً كانت تشعر بالفضول لتعرف كل شيء عنه، وعندها أسباب أكثر من أسباب صديقتها. فقد قابلته أول مرة وهو يقع عن المنحدّر في كورنوايل، وكانت غبية إذ لم تعرف منه ماذا كان يفعل هناك أو ما اسمه، ولكنها لم تشأ إخبار سيليست عن تلك الحادثة، وخاصة أنها غير متأكدة إذا كان كريستيان سيتعرف عليها مع أنها واثقة أنه نفس الشخص، ولا يمكن أن تكون مخطئة، على الرغم من أن من المدهش أن يظهر هنا في فالموند.

وقدمت القهوة على صينية من فضة، بعد أن دخل الرجال الى الصالون. وراقبت داماريس مناورات سيليست لتجعل كريستيان يجلس إلى جانبها وليس دونالد، وما ان نجحت في هدفها، حتى مالت إليه تحدثه بصوت خفيض لا يمكن للآخرين سماعه، وبدا أن كريستيان وجد ملاحظاتها مسلية.

وأدرك دونالد أنه لن يستطيع التقدم إلى سيليست فعبر الغرفة وجلس في المقعد الفارغ قرب داماريس. ونظر إليها عبر نظارته وقال:

- تبدين جدية كثيراً آنسة ترهران.

- انا متعبة قليلاً، كل شيء هنا غريب، وبحاجة لوقت لأستوعب مكاناً جديداً عليّ.

- أوه.. انت ضيفة أيضاً؟ اراهن أنك مرتبكة، أليس كذلك؟

لقد أرسلت بعض الصور عن المكان لأمي ولم تصدق أنني أعيش في قصر كهذا.

وشعرت داماريس بالدفء نحوه، فقد كان شخصاً واقعياً.

وسألها «ربما أنت معتادة على مثل هذه الأماكن؟».

- لا، مع أن منزلي ضخم وكبير، وهو قديم ويقع في كورنوايل.

- حقاً! إنه مكان عظيم، لقد أمضيت بعض العطلات هناك ولكن الطقس هناك لا يعتمد عليه، لذا فالناس يسافرون إلى الخارج، فالشمس هنا متوفرة أكثر.

وتحدثا عن كرونوايل، ووصفت له رافنسكراج. واثناء تحدثها لاحظت أن كريستيان كان ينظر إليها، والتقت عيناهما عبر الغرفة الواسعة. وحدق بها دون أن يبتسم، وأدركت أنه قد عرفها. ومررت يدها ترتّب طرف ثوبها، وأملت بأن يفكر كم تغيرت. ووقفت سيليست قائلة.

- لماذا نجلس هكذا؟ عندي مسجلة، هل تحبان الرقص؟ وعارضت أمها قائلة «لا يا سيليست، ليس هذه الليلة.. فهذان السيدان يجب أن يستيقظا باكراً لوظيفتهما، والوقت متأخر، وانت ايضاً لا بد أنك تعبة».

- أنا؟ أنا لا أتعب أبداً.

وركضت عبر الغرفة نحو المسجلة، وأسرع دونالد خلفها ليساعدها. فقالت داماريس:

- ولكنني تعبة، أظن من الافضل أن اقول «تصبحون على خير».

ووقفت الوالدة قائلة:

- حسناً.. سأرافقك الى غرفتك.

وفتح لها كريستيان الباب، وبينما هي تمر أمامه شعرت برعدة تسري في عروقها، كانت قد نسيت كم هو طويل وجذاب، وتبعها إلى الردهة ومد لها يده مصافحاً:

- تصبحين على خير، أيتها الحورية.

اذاً فقد تذكرها! وأمسكت يده بيدها بقوة وحرارة، وتطلعت عيناها إلى عينيه، والتقت بتلك النظرة الغريبة التي أربكتها على الدوام، وتذكرت ايضاً انه عانقها، العناق الوحيد الذي اختبرته في حياتها، واحمرّت وجنتاها. وقالت له بهدوء، اكبر بكثير مما كانت تشعر به:

- كنت اتساءل عما اذا كنت قد عرفتني.

وضغط على اليد التي لا يزال يمسك بها. وقال:

- من يراك مرة، مستحيل أن ينساك.

كانت السيدة تقف على أول السلم، ومن داخل الصالون ارتفع صوت المسجلة، وصوت سيليست تنادي كريستيان، فترك يدها وقال:

- سنتحدث في الغد.. تمتعي بنومك.

وعاد الى الصالون، ولحقت داماريس بمضيفتها على السلم العريض، وهي تتعجب من القدر العجيب الذي أعاده إلى حياتها.

• • •

في اليوم التالي أبدت سيليست اهتماماً لا مثيل له بعلم الغابات، وسألت والدها أن يأخذها إلى الغابة. كان الشابان قد تناولا فطورهما قبل استيقاظ الفتيات وخرجا للعمل في مكان مجاور. وقال لها والدها:

- يا ابنتي، أظن أنك ستلهينهم، فضيفانا موجودان هنا للعمل للسيد بونفيل.

- ولكنني أريد أن أرى ماذا يفعلان، وأنا واثقة أنهما سيرحبان باستراحة ليحييانني.

في النهاية حصلت على ما تريد وخرجت مع والدها بالرينو القديمة. وفضّلت داماريس البقاء في البيت. واخذتها السيدة إلى المطبخ، حيث ظهر لها أنها المسؤولة الوحيدة عن معظم الطعام الشهي، يساعدها خادمتان ممتلئتا الجسم، لم تكتشفا بعد الفرص التي توفرها لهما المدينة. ولكنها سرعان ما خرجت إلى خارج المنزل لتتجول، ونزلت الى التراس الاسفل لتجد مرج أخضر مفتوح على منظر أشجار سرو ممتدة على الجانبين، ترمي ظلالها على بعض التماثيل التي لا تزال منتصبة. شجيرات الورود المتشابكة خلف أعمدة النور بحاجة إلى تشذيب، والعشب يحتاج الى العناية وإلى خلع الأعشاب الضارة، والمكان كله ترك لتتلفه الطبيعة. وعبر المرج تجري ساقية صغيرة. وأفضى بها المسير إلى ممشى مسقوف، ينفصل عن القصر من خلفه بجدار حجري، وتصب الساقية عبر شلالات مصغرة في بحيرة صناعية حيث تلمع الاسماك الذهبية من خلال زنبق الماء. وقالت بصوت مرتفع «كم هذا المكان رائع!».

- أكثر تمدناً من رافنسكراج؟

والتفتت بعنف كان كريستيان تريفور يتقدم نحوها عبر الممشى المرصوف. فقالت له وقد فقدت توازنها من ظهوره المفاجىء.

- ولكن... ألم تذهب إلى الغابة.

- هذا ليس إلزامياً لي.. اما «دون» المسكين فهو ملزم، وأنا استطيع ان افعل ما أشاء. هل نجلس؟

وأشار إلى احد المقاعد المنتشرة في فتحات الجدار الحجري. فجلست باحتشام، وهي تبتسم مفكرةً بسيليست التي تتحمل مشقة التأرجح على طرقات الغابة في السيارة القديمة على أمل ان تلتقي بالرجل الجالس إلى جوارها هنا.

- ماذا يضحكك؟

- لا شيء، ولكن مسيو دوفالموند وسيليست ذهبا إلى الغابة ليروك هناك.

والتقت عيونهما وقال:

- حسناً، سيجدان دون هناك، وسيكون مسروراً لرؤيتهما وإطلاعهما على ما يفعل.

وفكرت ماريس: مسكينة سيليست، وأبعدت نظرها عنه، شيء ما في عمق العينان الزرقاوان كان يتفحصها خفية. واستمر بالتحديق بها، وشعرت بأن اللون في وجهها يتغير، فسألته بعصبية:

- هل هناك اسماك في البحيرة؟

- انت تعرفين أن هناك أسماكاً؟ هل تحبين مدرستك؟

- كيف تعرف أنني في المدرسة؟

- لقد أخبرني السيد والسيدة. الليلة التي سبقت قدومكما لم يتحدثا عن

شيء سوى عن مؤسسة مدام لوبرون الفريدة من نوعها، وكم من حسن حظكما أنكما مقبولتان هناك، أرى أن المدرسة قد نجحت في عملها معك.

- لم أكن دائماً تلك المتشردة التي التقيتها عند الشاطىء، حتى قبل أن تتعامل معي مدام لوبرون.

- لم تكوني؟ ولكنك تعلمت الأناقة والاتزان. وسيذهب كل هذا سدى في رافنسكراج، أليس كذلك؟ أم أنك لن تعودي إلى هناك؟

- طبعاً سأعود.

- وهل يتوجب عليك العودة؟ هل يصر ابن العم مارك على عودتك؟

واجابت باقتضاب «أجل».. لقد تذكر الكثير.

في الواقع لم يقل الاوصياء عليها أي شيء حول المستقبل، بعد قضاء سنتها في سويسرا.

وقال لها رفيقها:

- ليس واجباً عليك أن تطيعيه، أو الزواج منه، إذا لم ترغبي في ذلك. فنحن لم نعد نعيش في العصور الوسطى.

وشبكت يداها فوق ركبتها وقالت:

- لن افكر ابداً بأن لا أنفذ وصية جدي.

- ألا تزالين واقعة تحت تأثير عقدة الجد؟ لقد ظننت أنك نضجت وتخلصت منها.

واتكأ الى الخلف، وأخرج علبة سجائر غالية الثمن وقال «أتدخنين؟».

- لا.. لم أدخن من قبل ابداً؟

- فتاة عاقلة. يقال إن التدخين كالسم. ولكننا نبتلع الكثير من الدخان اليوم، ولا أظن أن التبغ هو الأكثر خطورة بينها.

رائحة التبغ امتزجت مع رائحة الزنبق الذي ينمو بمجموعات منفصلة على الصخور. فالموند لم تتأثر بعد بسموم المدينة، وصعدت سمكة وأطلقت فقاعة هواء ثم غطست، وارتفعت الفقاعة بلونها البرتقالي والذهبي. وسألها:

- هل قابلت هذا السيد العجوز، ابن عمك مارك؟ وهل كان حسبما تتوقعين؟

- تقريباً...

ولم ترغب في أن تعترف بأن مارك لم يزعج نفسه للقائها.

ونظر اليها نظرة غامضة وقال:

- هل كان يشبه جدك؟

- له شبه كبير بالعائلة.

ومدت يدها وقالت:

- لقد أرسل لي هذه في عيد الميلاد.

- جميلة ولكن غير مناسبة. الزمرد وحده يناسب عيناك. من الواضح انه لا يزال يعتبرك طفلة، ولكنك تبدين الآن وكأنك بلغت سن الرشد، مع أملي ان لا تكوني راشدة زيادة.

وقالت له متجاهلة ملاحظته حول الرشد:

- عيناي ليستا خضراوين.

وأمسك بذقنها، كما فعل مرة من قبل، ورغماً عنها، وقد انجذبت بنظرته، رفعت عيناها لتلتقيا بعينيه الزرقاوين، وتمتم:

- لا... ليستا خضراوين، او ربما قليلاً، وهناك لون ذهبي أيضاً، من الصعب إيجاد حجر كريم يناسبهما.

وانحنى ليقترب أكثر، وأخذ قلبها يدق بعنف وقد أحست به بكل عرق ينبض في جسدها. ولكن إذا عانقها ثانية، يجب أن تحتج، وبشدة. فهي ليست حرة، ولكنه لم يفعل، بل رجع إلى الوراء وأنزل يده عن ذقنها.

- ابن عمك مهمل لأنه أرسل لك فقط هذه الهدية الطفولية، ولكن ربما لا يعرف أنك أصبحت كبيرة.

- لقد أرسل لي أزهاراً أيضاً.

- مع حبه؟

واصبح لونها أحمر قانٍ «لم نبحث بأمر الحب». ثم قالت بشيء من التحدي «أنا أعلم أنك لا توافق على هذا، ولكن ليس هناك حل آخر سوى الزواج. فكلانا ترغب برافنسكراج».

- هل أخبرك أنه يرغب برافنسكراج.

- بالطبع يرغب فيه.

ونهض كريستيان وقال ببرود:

- يبدو لي يا عزيزتي، أنك تأخذين رغبات ابن عمك كأمر واقع. على كل، لقد سئمت من ذكره.

هل تحبين التنزه في السيارة؟

- ولكنني اعتقدت أن السيارة مع دونالد.

- أجل هي معه، ولكنني لا أفكر أبداً أن آخذك بتلك السيارة الفظيعة. معي سيارتي الخاصة.

وترددت، فمع أن النهار جميل، وتحب كثيراً أن تشاهد الريف، ولكن

الإخلاص لمارك يشير عليها بأن ليس من الحكمة أن تكون لوحدها مع كريستيان.

وكأنه قرأ افكارها، فقال وقد فقد صبره:

ـ أنت لست في عهد الحريم، حتى ولو اعتبرت نفسك مخطوبة، ومارك في كورنوايل.

وتذكرت سخطها على ابن عمها لتجاهله لها، فأطاحت بتعقلها في الهواء وقالت:

ـ أحب أن أذهب.

وسارت أمامه عائدة عبر الحديقة.

٣ ـ لا مكان للحب

صعدت داماريس لتحضر حقيبتها اليدوية ونظارتها الشمسية، بينما ذهب كريستيان ليبلغ السيدة دوفالموند، بانه سيأخذ ضيفتها في نزهة، فوافقت على ان يعود بها في وقت الغداء.

وعندما عادت داماريس، كان قد أحضر سيارته عند الباب الامامي، ورأت بنفسها أنها فعلاً تختلف عن سيارة العمل «اللاندروفر»، فهي طويلة وأنيقة ويبدو عليها أنها غالية الثمن. ومع ذلك فقد أتى لينزل في هذا القصر برفقة اختصاصي غابات حقيقي لدراسة الاشجار. واحست داماريس، كما احست سيليست، ان هناك غموضاً يجب عليها كشفه.

واتجهت السيارة نحو القرية وبعد عدة طرق جانبية، خرجت بهما الى الطريق العام، نحو بلدة «أنسي» وسألته:

ـ ما الذي دفعك إلى القدوم إلى مكان منعزل مثل فالموند؟ لا أستطيع في الواقع أن أصدق أنك مهتم بالأشجار.

ـ ولماذا لا؟

ـ حسناً انت لا تبدو مثل دونالد.

ـ هل يجب ان يكون للمرء مظهر معين ليكون خبيراً بأشجار السرو؟

www.elromancia.com

ـ انت تعرف ما أعني، وهناك غابات أكبر وأفضل في أماكن أخرى من اوروبا.

ـ صدف أنني أحببت هذا الجزء من اوروبا والعمل مع دونالد. أما إذا ما كان يناسبني، فإشارتك هذه ليست مؤدبة بالنسبة لمضيفينا، فانا أجدهما رائعين، وجو القصر مريح.

ـ أعتقد أنه جميل... ولكن ما عدا هذا ليس هناك مجال للمقارنة.

ـ وهل هذا يشكل فرقاً؟

ـ ألا تعتقد؟

ـ اؤكد لك، مهما ابتعدت فلن تجدي مكاناً مثل ڤالموند.

ـ وهل لديك خبرة واسعة في هذا المجال؟

ـ خبرة واسعة جداً... اما الآن فلنتكلم عن شيء آخر.

وشعرت وكأنه يصدها، فلم تتابع اسئلتها.

وصلا الى «آنسي». وكانت بلدة صناعية على شواطىء بحيرة صغيرة جميلة، وفنادقها مليئة بالسياح. واقترح كريستيان عليها تناول القهوة، وجلسا على تراس احد المقاهي الذي يشرف على البحيرة.

وقال لها ساخراً «هل يعلمونك شيئاً عن الأشجار والتحطيب في المدرسة؟».

فأجابته برزانة «لا، ولكنهم يعلموننا الأخلاق الجيدة».

ـ آه... لقد نسيت، فأنا أنتمي إلى الجيل الذي ليس عنده أخلاق. ولكنني أحب استكشاف الغابات والجبال.

ـ وهل ستقوم بتسلق الجبال هذه السنة؟

ـ لا، فليس لديّ وقت، فساكون مشغولاً جداً.

ـ بالأشجار؟

ـ لا، فلديّ اهتمامات أخرى.

ـ مثل ماذا؟

فابتسم، واخرج علبة سجائر واخرج منها واحدة واشعلها، ووضع العلبة على الطاولة، ومالت إلى الأمام لتنظر إلى الأحرف المنقوشة على العلبة، وكانت «س. م. ت» فسألته:

ـ ماذا يعني حرف «م»؟

ـ ولماذا تريدين أن تعرفيه «آنسة حشرية»؟

ووضع العلبة في جيبه، فقالت له بخبث:

ـ لأن الأمر سيكون سيئاً لو أنها تعني «مارك».

ـ ولماذا؟ ابن عمك ليس لديه احتكار للاسم. وهو شائع في هذه الأيام.

ـ هل هو شائع؟ لقد بدا لي أنه قديم.

ـ هل بسبب اسطورة تريستان وايسوليت؟ انها المفضلة لديك، أذكر أنك أسميت كلبيك باسمهما. هل تظنين أن «الملك مارك» سيأخذ فكرة سيئة بأنك على علاقة مع تريستان في سافواي؟

ـ لا اظن أنه بهذه البلاهة، وليس هناك شيء بيني وبينك ليعترض عليه.

واحمرت من الغضب، لأن اختيارها للكلمات كان غير ذكي، فقال لها عن قصد:

ـ ليس بعد، من يعرف ما قد يحصل؟ فقد تقعين في حبي. لقد وضعت لك اكسير الحب في القهوة.

ونظرت دون وعي إلى كوب قهوتها الفارغ، ثم ضحكت:

- كم هذا مضحك! كيف تستطيع فعل هذا على كل الأحوال؟ وليس هناك مثل هذه الاشياء.

- لا تكوني واثقة هكذا، فأنا رجل واسع الحيلة.

- على كل، أنت لا تمثل فكرتي عن تريستان.

- حقاً؟ لقد خيبت أملي، لقد اعتقدت أنني اشبهه ولو لم امثل دوره.

- وهذا ما لن تحلم به بالطبع. على كل اسم عائلتك ليس انكليزياً.

- جاء دوري لأخيب املك. فاسم تريفور، كما أعتقد، هو من مقاطعة ويلز البريطانية.

ونظر إلى ساعته وتابع:

- اذا أردنا أن نصل في الوقت المحدد للغداء فالأفضل أن نذهب الآن.

* * *

عندما وصلا إلى القصر، كانت سيليست قد عادت من رحلتها الفاشلة، وخلال الغداء أخذت تنظر إلى داماريس نظرة ثاقبة وهي تقول لكريستيان:

- لم يكن لدي فكرة أنك لم تكن تعمل. كنت أفضل اكثر ان اذهب إلى آنسي، بدل الغابة. هل لديك الكثير من وقت الفراغ؟

- أحصل على وقت الفراغ ساعة أشاء. ولكنني متأكد أن ذهابك إلى هناك قد ابهج دون المسكين.

- أظن أنه سر لرؤيتي.

واقترح كريستيان، كي يرضيها، أن يمضي اربعتهم الأمسية في الخارج. وعندما عاد دونالد وافق على الفكرة. كذلك وافق السيد والسيدة ڤالموند.

وتأكد كريستيان من وجود جوازات سفرهم لأنه كان ينوي أخذهم الى جنيف، مما خيب أمل داماريس لأنها كانت تعرف تلك المدينة، وكانت تفضل مكاناً لم تعرفه بعد. وجلست بالقرب من كريستيان في السيارة، وسيليست مع دونالد في الخلف.

في الطريق توقف عند محل للزهور، واشترى باقة من البنفسج لكل فتاة، حمراء لسيليست وبيضاء لداماريس، التي قالت وهي تثبت الزهور على فستانها:

- أعتقد أنها ستكون ليلة ستتذكرها طويلاً.

- أنا أقصد أن تكون هكذا.

وعبروا الحدود، وعندها بدت لهم جنيف مختلفة تماماً عما تعرفها داماريس في النهار. وقاد كريستيان السيارة عبر طريق إلى جانب البحيرة، حيث كانت كل الاضواء التي لا تعد ولا تحصى المنبعثة من الفنادق والجسور تنعكس على صفحة البحيرة، وكأنها جواهر متلألئة فوق المخمل الاسود. ومن مكانهم المرتفع بدت لهم ابراج «سان بيار» في الجزء القديم من البلدة، وهي غارقة بالاضواء المشعة.

وقالت داماريس «إنها مدينة ساحرة هذه الليلة!» وقال كريستيان وهو يرمقها جانبياً «إنها المكان المناسب للرومانسية».

تناولوا العشاء في أحد أكبر الفنادق. وأثناء تناول الطعام، أمسك دونالد بيد سيليست، تحت الطاولة، وتركته يفعل نكاية بكريستيان، الذي همس لداماريس.

- انظري ماذا يفعل الجو الرومانسي حتى لرجل انكليزي بارد.

وقالت له بدهشة «الست انكليزياً أيضاً؟».

- انكليزي باسم ويلز؟

- ولكن اهل ويلز بريطانيون أليس كذلك؟

- أجل ولكن ليسوا انكليز، في الواقع أنا من أصل مختلط.

من اصل مختلط؟ اخذت تفكر وهو يدير رأسه ليتحدث إلى سيليست. كل خط من جسده النحيل، ومن جانب وجهه الجميل، واصابع يديه الطويلة، تتكلم عن سلالته. ربما عندما تعرفه أكثر، سيخبرها عن بيته وعائلته. فكل ما تعرفه الآن عنه، أنه رحالة، غير متزوج، او هكذا قال، ويدرس علم الغابات، عندما يناسبه الوقت. وتذكرت أن السيدة فالموند قالت إنه ليس فقيراً. وخمنت، أن العمل في الغابات ما هو إلا هواية، ولا يمكن أن يكون يعمل من أجل الحاجة.

بعد العشاء ذهبوا الى صالة الرقص، التي كانت تتدلى من سقفها ثريات من الكريستال. وقسم كريستيان وقته لمراقصة الفتاتين، عندما رقصت معه كانت تشعر بالفرح. كان يتحرك برشاقة وخفة، أما هي فقد اكتسبت خبرة في الرقص من الاكاديمية، وتناغمت خطواتها تماماً، وامسك بها قريباً منه ولكن على بعد قليل، وعبر الاجساد الراقصة كان يقودها برشاقة كمحترف تقريباً.

وقالت لنفسها إن رقصه الجميل هو الذي كان يدفعها بشوق لأن تكون بين ذراعيه، ولكنها عرفت أن هناك شيء آخر كان يدفعها.

وقال لها «هل بدأ السحر يفعل فعله عليك؟».

- بالتأكيد. إنها ليلة ساحرة، ولكنها ستنتهي عند منتصف الليل، فكل السحر الجيد ينتهي.

لا بد انها ستسامح نفسها لأجل ليلة واحدة نسيت فيها كل شيء عن مارك ترهران، استسلمت لسحر هذا الرجل الجذاب.

في الواقع كان منتصف الليل قد مضى عندما غادروا باتجاه المنزل. وسارت السيارة الكبيرة عند حافة البحيرة، وكان القمر قد ارتفع ليلقي بنوره الفضي فوق الماء، ويضيء الهضاب البعيدة، ثم ابتعدت بهم الطريق عن البحيرة، نحو التلال، وسأل كريستيان:

- حسناً هل ستتذكران هذه الليلة؟

وضحكت قائلة «كل حياتي». ومن المقعد الخلفي تمتمت سيليست «إنها ليلة جديرة بالذكرى. أنت لطيف جداً».

وبدا لهما «القصر» من ابنية الأساطير أكثر مما مضى، وهو ينتصب فوق الضباب الخفيف الذي يغمر الوادي، وضوء القمر يضيء أبراجه، بدا غير حقيقي وغاية في السحر. خلفه برزت الغابة، الصاعدة باتجاه السماء. ولم يظهر منه نور سوى عند الباب الامامي، فمن فيه نائم الآن. وتوقف كريستيان أمامه، وخرج من مقعده واستدار ليفتح لها الباب، بينما أمسك دونالد يد سيليست لتنزل. وقال كريستيان:

- دونالد يا صديقي، الأفضل لك أن تهرع الى الفراش لن تنام كثيراً قبل أن تضطر الى النهوض لعملك.

ونظر إليه دونالد وهو نصف نائم، وقال:

- ايعني هذا أنك لن ترافقني غداً؟

- ليس باكراً، ربما فيما بعد خلال النهار. سأترك السيارة هنا حتى الصباح.

وبينما كان يقفل السيارة، وقفت داماريس الى جانبه، وحدقت سيليست

بهما، وهزت كتفيها، ودخلت إلى المنزل. ولحق بها دونالد، وأقفل الباب وراءهما. وهبت نسمة هواء عابقة برائحة أزهار الربيع، ومن على اشجار الورد بدأ عندليب بالغناء. وتنهدت داماريس وقالت:

- كم هي ليلة جميلة! يبدو أن من العار أن نتركها وندخل.

- هل نذهب ونرى اذا ما كان السمك الذهبي يتمتع بهذه الليلة؟

وترددت. كانت تعلم أنها يجب أن تدخل الى المنزل، والبقاء هنا مع كريستيان أمر غير حكيم، ولكنها شعرت بعدم الرغبة في ترك روعة الليلة المقمرة، وإنهاء هذه الأمسية الساحرة.

وقالت بخفة «هيا بنا!» ورفعت تنورتها الطويلة وركضت بخفة لتنزل السلالم، عبر المرج.

كانت تطير كالفراشة، وتبدو وكأنها طيف حورية بثوبها الأخضر، ومن خلفها يسرع طيف كريستيان، وكأنه إله الغابات يلاحقها. ووقفت عند البحيرة، متوردة ضاحكة.

كان ضوء القمر يجعل المياه تلمع كالماس، وصعدت سمكة تسعى وراء حشرة، ثم هبطت ثانية، وتموج الماء بألوان سوداء وفضية. رائحة النرجس كانت تملأ الهواء الربيعي. واستدارت إلى كريستيان الواقف وراءها.

- إن السمكات هنا، لقد رأيت إحداها... أوه! وجذبها نحوه، وأمسكها قريبة منه. رائحة التبغ وعطر ما بعد الحلاقة التقيا في انفها مع رائحة البنفسج التي سحقت على صدرها، وبعدها كل حواسها اختلطت وهو يضمها أكثر بين ذراعيه، كان عناق يختلف عن ذلك الذي اختبرته عند قمة المنحدر. كان هذا

أسراً، متملكاً، مدمراً تماماً. ثم وبنفس السرعة التي حضنها بها، تركها. ووضعت يدها على فمها وصاحت «اوه!» واستمر العندليب بالغناء، ونغماته الشبيهة بصوت المزمار تملأ الجو الهادىء.

واستدارت داماريس وصعدت السلم بسرعة، لتصل إلى المرج الصغير، ثم بدأت تركض، وعرفت انه يتبعها، وشعرت بذعر مفاجىء ينتابها، وزادت من سرعتها. كانت تركض هاربة من مشاعرها نحوه. واصطدمت بالباب الامامي الضخم، وللحظة من الرعب الذي لا مبرر له. اعتقدت أنه مقفل. وهبطت يده على يدها وعلى مقبض الباب معاً. وقال بصوت طبيعي تماماً «إنه قاس قليلاً، اسمحي لي أن أفتحه».

وبدأت دقات قلبها المتسارعة تهدأ. وفتح الباب، ولكنهما لم يتحركا على الرغم من تباعد يديهما، وعلى ضوء المصباح ممتزجاً بضوء القمر من ورائهما لم تستطع رؤيته بوضوح، وبدا لها ضخماً وخطراً إلى أن لاحظت أنه يضحك بصوت منخفض. وقال:

- يا صغيرتي، ماذا هناك في عناق صغير؟

كان هناك لمحة حنان في صوته لم يستخدمها من قبل وتابع قائلاً:

- إنها طريقة مناسبة لشكرك على الامسية الرائعة. ولا حاجة لك للهرب مني وكأنني خفاش خارج من جهنم.

- لقد ظننت...

- ظننت ماذا؟ هل تصورت أنني سأحاول إغواء خطيبة مارك ترهران؟

وأصابتها الذكرى كالسوط، فتمالكت نفسها وعادت الى رزانتها فوراً. وقالت ببرود:

ـ بالطبع لا، ولكنني لا اظن أن ابن العم مارك سيرحب بعناقي لك، حتى ولو من أجل الشكر. تصبح على خير سيد تريفور، أظن أن شكري قد عبرت عنه قبلاً.

وتخطته، وصعدت السلالم المضاءة بنور خفيف، وهي تحس بضحكته الساخرة تلاحقها. وعندما وصلت الغرفة، وجدت سيليست هناك بانتظارها وقالت الفتاة الفرنسية بريبة:

ـ لقد تأخرت.

ـ كنت أقول له تصبح على خير واقفل الباب وعلق... واستدارت إلى المرآة، وهي تدرك أنها محمّرة الوجه ولم ترد أن ترى سيليست ارتباكها. وعلقت سيليست بصوت جاف.

ـ كم هذا مناسب! أعتقد أنه عانقك؟

ـ حسناً، اليست هذه الطريقة الصحيحة لتقديم الشكر على امسية رائعة؟

وضحكت سيليست ضحكة قصيرة وقالت:

ـ هكذا إذاً! لم يمنحني الوقت الكافي لأشكره!

حسناً يا عزيزتي، تهنئتي لك، من الواضح أنه مفتون بك وأنا أنسحب من المنافسة. آه... كم انت محظوظة. إنه واحد من مليون... لقد ظهر لي الآن أنه يطابق وصفك عن فتى احلامك... ذلك الذي التقيتيه ولم تتوقعي رؤيته ثانية... هل من الممكن أن يكون هو كريستيان؟

وهزت داماريس رأسها بالإيجاب فتابعت سيليست قولها:

ـ لديك إذاً أفضلية غير عادية، لقاء سابق هل كان يعلم أنه سيقابلك هنا؟

وجلست داماريس على مقعد طاولة الزينة وقالت:

ـ بالطبع لم يكن يعرف.. إنها صدفة محضة، وأنت تستنتجين أشياء خاطئة. ليس هناك أي شيء بيني وبينه. ربما في الغد يكون دورك، لا أتخيل أنه يتحلى بفضيلة الإخلاص الزائد.

وبدت الدهشة على سيليست وقالت:

ـ أتعنين أنني إذا استطعت أخذه منك، فلن تغضبي؟

ـ أبداً... في الواقع قد يكون هذا أفضل.

سيليست حرة، أما هي ففي أفق مستقبلها يلوح طيف ابن عمها مارك. كان يتملكها ارتياب غير مريح بأن كريستيان يحاول متعمداً دفعها لفسخ خطوبتها التي لا يوافق عليها أبداً. وقالت لها سيليست بمرح:

ـ شكراً كثيراً لك... بما أنك أعطيتني «كارت بلانش». سأحاول طبعاً، رغماً عن أنني لا أعتقد أن هذا أمر ممكن.

ونهضت سيليست واقتربت من صديقتها وحدقت بعينيها، فأدارت رأسها بعيداً، وقالت سيليست:

ـ يا صديقتي، ربما ارتكبت تلك الغلطة؟ أعتقد أنك وقعت بحبائل هذا الشاب الجميل

وصرخت داماريس بغضب:

ـ لا... لم أقع بحبه، ولا يجب. سيليست، اذا كنت تحبيني، لا تتركيني أبداً معه لوحدي ثانية.

ـ حسناً يا عزيزتي، إذا كنت ترغبين بهذا.

وبدت سيليست محتارة، هل يبدو أن كريستيان وغد؟ وقالت:

ـ لا تخافي يا صغيرتي، أعتقد أنني أستطيع التعامل معه، تصبحين على خير يا حبيبتي.

بعد أن خرجت، جلست داماريس لفترة طويلة، وهي تحدق إلى خارج النافذة، حيث يدخل نور القمر عبر الستائر المرفوعة. الوقوع بحب كريستيان تريفور يعني الكارثة. كانت واثقة أن ليس لديه النوايا الصادقة، وعليها أن تفعل ما بوسعها لأن تصرف المشاعر غير المرحب بها المتواجدة داخلها، وبسرعة. ولا يجب عليها أبداً أن تكون من الغباء بحيث تسمح لنفسها أن تكون لوحدها معه ثانية. قد تساعدها سيليست، والعطلة ستنتهي قريباً. وعندما تنتهي ستعود إلى دراسة الفصل الأخير من السنة وبعدها رافنسكراج والسير مارك ترهران، وما من شك أنها تستطيع أن تعصى قلبها، وتبقى بعيداً عنه خلال ما تبقى من عطلتها. في الخارج، وفي الحديقة، كان العندليب لا يزال يغني، وأسرعت الى النافذة واقفلت الستائر، في وجه ضوء القمر، وغناء العندليب، وذكرى عناق كريستيان. فمستقبلها هو هناك فوق المنحدرات الرمادية في وطنها حيث يوجد قلبها الحقيقي.

وتم لها ما أرادت، فقد أعلن دونالد أنه اكتشف حشرة ضارة بالصنوبر، وهكذا اضطر كريستيان للخروج معه يومياً، لتفحص مدى ضررها، ومناقشة وسائل مكافحتها.

عادة بعد العشاء، كانت سيليست تقفز اليه حالما يدخل الصالون لتناول القهوة ثم تجره لتدير شريطها المفضل، وأحياناً كانت تخرج به الى القاعة لترقص. وفي إحدى المرات دخل عليها كريستيان ودعاها للانضمام إليهما ولكنها رفضت ببرود وراقبته وهو يعود إلى سيليست بعينين حزينتين. إخلاصها لابن عمها يكلفها الكثير.

فيما بعد، وبعد عدة أمسيات، تبعها على الدرج وهي ذاهبة باكراً الى النوم وقال:

ـ لماذا هذا التصرف البارد؟ هل أزعجتك، ام أنك خائفة؟

كان يقف على الدرجات أعلى منها لمنعها من الصعود، ونظرت إليه ورأت في عينيه ذلك الوميض الذي طالما أربكها، فقالت بسخرية:

ـ بالطبع لست خائفة، ولمَ أخاف منك؟

وشعرت بقلبها يخفق بسرعة، وأجابها:

ـ هناك عدة أسباب. اولها أنك لست غير مهتمة بي كما تدّعين.

وسبب لها هذا الكلام الذي لا يحتمل احمرار وجهها، واصبحت عيناها اكثر اخضراراً، وهما تلاقيان عيناه بتحدي..

ـ انت سخيف! هل تتصور أن كل فتاة مجنونة بحبك؟ لديك سيليست.

ـ ربما لا أرغب في سيليست. الا تعلمين أن الرجل صياد؟ وهو ينجذب إلى ما هو صعب المنال.

ـ حقاً؟ ولكنني لست تلك المثيرة للاهتمام كثيراً.

وحاولت أن تضحك، ولكنها فشلت، وارتجفت شفتاها. وبعد مدة قصيرة، وبجهد كبير، خفضت عينيها وقالت:

ـ أرجوك، أنا في طريقي إلى الفراش، تصبح على خير، سيد تريفور.

ولكنه لم يتزحزح بل قال:

ـ أنا منتظر.

ـ ماذا ينتظر؟ وأخذت تفكر يائسة بالعودة إلى الصالون عندما دخلت سيليست إلى القاعة وصاحت بصوتها المرح:

- كريس... كريستيان، ألن تأتي؟ أين انت؟

وتنحى من طريقها نحو سياج الدرج ليترك لها مجالاً لتجاوزه وقال:

- تصبحين على خير يا ملكة الثلج، وأتمنى أن تحلمي بي.

وأسرعت الى غرفتها، وألقت بنفسها فوق السرير وقد فاجئتها الدموع. هل تستحق رافنسكراج كل هذه التضحيات؟ لو انه لم يجذبها هكذا لاستطاعت ان تكون طبيعية مع نفسها، وأن تنضم إلى المرح واللهو مع سيليست، ولكنها تعلم أنها لو استسلمت قليلاً فسوف تُغلب على أمرها... ولكن لماذا؟ هل هو الحب الذي تشعر به تجاه كريستيان؟ هذا الارتباك الداخلي عندما ينظر إليها، هذا الشوق الغامر للمسته؟

لم تكن تحتاج لإكسير الحب، ولا لكتابات سحرية لتسبب لها الارتجاف، او لتشتعل وجناتها بالدماء، وهي لا تجرؤ على البوح بعواطفها التي تسبب لها القلق، ولا يجب عليها أن تعترف بها، لأنها لا تملك الدليل على أن كريستيان عنده نفس المشاعر. لا بد أنه شعر بالتحدي لإخلاصها لمارك لذا يمتع نفسه بمحاولة إقناعها بالتخلي عن إخلاصها. وتذكرت تحذير السير هيوغ لها من اختلاط الجنسين وسطحية المجتمع الإباحي، وأدركت، بأنها وقد قابلت واحداً منه الآن، فإن ما يريده كريستيان إنما هو عبث رخيص، وبعد أن غزا سيليست ثم احتقرها لذلك، ها هو الآن يطاردها بطريقته الخبيثة السوداء، ألم يقل لها بنفسه ان الرجل صياد؟ ولكنها اذا استسلمت له، فان اهتمامه بها سيموت، وتكون قد خانت مارك ورافنسكراج سدى.

مساء اليوم التالي دخلت عليها سيليست الغرفة وهي ترتدي ثياب العشاء وتضع المساحيق على وجهها لتطلب منها النزول لتناول العشاء.

- إنه آخر عشاء لنا هنا قبل أن نعود إلى المدرسة غداً.

وجلست داماريس وهي تفرك عينيها وقالت:

- سأنزل بعد قليل.

ستكون هذه آخر مرة ترى فيها كريستيان ولم تستطع إلا أن تحضر العشاء. وجلس الجميع ساهمين ما عدا سيليست المرحة، ولكنها لم تلاحظ أي تجاوب من كريستيان الذي بدا شاحباً. وبعد تناول القهوة اقترحت عليهم السيدة ڤالموند النوم باكراً وذكرت الفتاتان بأن عليهما أن ترتبا أغراضهما. واحتجت سيليست فقد كانت تأمل بأمسية مرحة. وأوضح كريستيان أنه ليس بمزاج يسمح له بالسهر، وحاول منع تثاؤبه بصعوبة. وتناول يدها مودعاً لأنه سيكون في عمله عندما تستيقظ في الصباح للسفر.

ولم يبدو عليه الأسف لأنها مسافرة. لقد حصل عليها بين ذراعيه. وبما أنه كسبها لم يعد يريدها، وقال دون اكتراث «آمل أن تكوني استمتعت بعطلتك».

- شكراً سيد تريفور، لن أنسى هذه العطلة أبداً.

وفي الصباح التالي استيقظت باكراً، وأسرعت إلى النافذة لتنظر إليه لآخر مرة، وهي تحتقر نفسها لهذا الضعف. كان الصباح مشرقاً وصافياً. واستجيبت رغبتها عندما مر أمام البرج، سائراً مع دونالد يتحدثان، وهو يرتدي ثياب العمل الخضراء، ويبدو نشيطاً ومتيقظاً ذلك الصباح. وخبأت نفسها بحذر وراء الستارة في حال أنه نظر إلى الأعلى، ولكنه لم يفعل. إذاً فهي بعيدة جداً عن تفكيره وكأنها غير موجودة.

بعد الإفطار بقليل وصلت سيارة الأجرة، بعد أن رفضت سيليست العودة إلى المدرسة بسيارة الرينو القديمة، لتأخذهما عائدتين إلى جنيف.

٤ ـ في انتظار العريس

اوشك فصل الصيف الدراسي على نهايته، وبالنسبة لداماريس، التي هي الآن في سن التاسعة عشر وستحتفل بعيد ميلادها في العشرين من ايلول، كانت حياة المدرسة مضجرة، ولم تكن تتيح لها أبداً أي تخفيف لألم قلبها المجروح. خلال الأسابيع الأولى. أخذت تجد المبررات للذهاب إلى المدينة، تارة تحتاج لتصفيف شعرها وتارة عيناها يلزمهما فحص، حتى أنها ذهبت مرة الى اخصائي الأقدام. وكانت تأمل من ذلك أن تلتقي صدفة بكريستيان. لقد دخل حياتها مرتين، ومع كل الظروف لا تستطيع أن تصدق أنها لن تراه بعد الآن. ثم تلقت سيليست اخباراً من اهلها انه غادر القصر دون إنهاء بحثه، متذرعاً بعمل ضروري وعاجل في بلده.

وقالت سيليست مرة لداماريس:

ـ لن أذهب إلى المنزل في عطلة الصيف، فلديّ بعض ابناء العم في باريس سأذهب اليهم، وربما تدبرت أمر ذهابك معي.

ـ شكراً لك. ولكنني سأعود إلى بلدي.

كانت تشك في أن هذه هي الحقيقة، فهي لم تتبلغ بعد أي شيء نهائي. لذا تلقت عرض سيليست بقنوط. وحاولت أن تقنع نفسها دون جدوى، أن العودة إلى الوطن أمر مفيد لها، وأن من واجبها أن تمحو كل تفكير بكريستيان

www.elromancia.com

من ذهنها. وبدا ان شوقها لرؤيته يزداد بدل أن يتلاشى. وسعت إلى التركيز على عودتها إلى بلدها، فكتبت الى السيد بريستون، تذكره بأن سنتها في الخارج قد أوشكت على النهاية وأنها تتوقع عودتها الى رافنسكراج. وأخبرت سيليست بعد كل هذه المدة عن خطوبتها.

- ولماذا ظننت أنني قد لا أفهم.. فالترتيب الذي قام به جدك هو تفكير سليم. وهذا يتم عادة هنا. ومن الطبيعي أن يتمنى اللورد أن تتدربي على مركزك الجديد، لا تخشي شيئاً فخطيبك سيفتن بك عندما يلتقيك، وأتمنى ان تدعيني لزيارتك عندما تستقرين.

- طبعاً سأدعوك. ولكن ما يقلقني هي المدة الفاصلة إلى أن أستقر.

- إذاً لا تقلقي فاللورد سوف يقوم بالترتيبات اللازمة.

ولكن داماريس لم تكن واثقة أن ابن العم مارك سيقوم بهكذا ترتيبات أبداً.

وبالنسبة لكريستيان، وجدت داماريس أن كلام سيليست عنه كان صارماً. فقد قالت لها إنه لا يصلح لأن يكون زوجاً. ولم تتناقش داماريس معها، فلو تزوجت مارك، فستدين له بالإخلاص إذا لم تستطع منحه الحب. ولا تعتقد ابداً أن كريستيان سيظهر ثانية في حياتها. لقد أظهر لها بوضوح أنه لا يبالي بمستقبلها.

وكتبت لها هيلين كارو مجددة عرضها لها بالإقامة معها. وقالت إن المتجر قد حقق النجاح منذ البداية، وان صديقتها ماري بروك تتوق لأن تنضم داماريس إلى إدارته. وأقلقت هذه الرسالة داماريس، لأنها تشير إلى أن رجوعها إلى رافنسكراج غير متوقع. ولكن قبل أن تستطيع كتابة الرد لتطلب كلاماً صريحاً

أكثر، وصلتها رسالة من السيد بريستون يقول فيها إنه وزوجته قادمان لقضاء إجازة الصيف في سويسرا وإنه سيراها في جنيف.

وارتدت افخر ملابسها لمقابلته، فقد كانت متشوقة للتأثير عليه بالثقافة الجديدة التي اكتسبتها. وعلقت سيليست قائلة:

- جميل جداً... ولكن رسمي.

- السيد بريستون يتوقع أن يراني كسيدة. لذا لا أستطيع ارتداء بنطلون وكنزة ملونة.

كان آل بريستون ينزلون في فندق متواضع في شارع خلفي. وأقبل السيد بريستون للقائها، وهي تهبط من التاكسي الذي استأجرته السيدة لويرون لإيصالها. وبدا أكبر قليلاً وأكثر شيباً. وهز يدها مصافحاً وهو يتفحصها من رأسها إلى أخمص قدميها.

- داماريس يا عزيزتي، كم تبدين فاتنة. تعالي وقابلي زوجتي.

وكانت زوجته ذات جسم صغير وبدينة. وحيت داماريس بلطف، ثم تناولوا القهوة في الصالون الصغير، وتبادلوا الحديث حول البلدة ومحيطها، وداماريس تتساءل في نفسها متى سيثير وصيها النقطة الأهم، واخيراً وقف على قدميه وقال:

- والآن يا داماريس إلى العمل، لقد وعدني صاحب الفندق أن لا يزعجنا أحد. اعذريني يا عزيزتي.

وابتسم لزوجته ورافق الفتاة الى ما بدا أنه مكتب صاحب الفندق.

وعندما جلسا قال دون مقدمات:

- لقد زودني السير مارك ترهران بتعليمات كي أبلغك عن استعداده للوفاء برغبة جدك، والزواج بك إذا كنت موافقة.

وتنهدت داماريس بارتياح، وقالت له:

- لقد كنت اظن أن كل شيء مقرر. وعلى هذا الأساس أتيت إلى المدرسة.

- هذا كان من سنة. وربما غيرت رأيك.

- لم يخطر ببالي أبداً هذا الأمر. كنت أظن أن الأمر محتم.

- هذه هي النقطة يا داماريس. فالسير مارك تواق لأن لا تشعري أنك مرغمة. وهو مستعد لتسوية مالية، إذا كنت مستعدة لعدم المطالبة بأي حق في الأملاك. وأستطيع القول أن التسوية ستكون سخية. وبما أن الاراضي تؤول للرجل التالي في العائلة، فلا يعود هناك سوى المزرعة نفسها قيد السؤال، ومطالبتك بها متوقفة على هذا الزواج.

- أنا أريد المنزل فقط، إنه منزلي.

- وهل سيكون الأمر نفسه وللمنزل سيد جديد؟

وارتجفت شفتاها، فالسؤال كان قاسياً. وضمتهما معاً فوراً ورفعت رأسها بغطرسة.

- ولكنني ساكون السيدة. ولا أرى أي هدف من إعادة بحث هذا الموضوع ثانية، فكلنا نعرف أن هذه رغبة جدي.

- كل ما يريده السير مارك أن يؤكد أن لا حاجة بك للشعور بالتقيد برغبة جدك. وهو لا يريدك أن تضطري إلى تنفيذها اذا ثبت أنها لا تحقق سعادتك.

وضربت يدها على ركبتها الموضوعة فوق الأخرى، ونظرت إليه بثبات وقالت:

- وهل تعتقد أن من المستحيل عليّ إيجاد السعادة وأنا زوجة لابن العم مارك؟

وتحت وطء النظرة المباشرة لعينيها الصريحتين، انهار وبدا محرجاً فقال لها:

- انت لم تقابليه بعد. إنه أكبر منك بكثير... أعتقد... أتساءل... فيما لو...

- لو أنني التقيت بغيره؟ لم يكن بامكاني هذا وأنا في المدرسة. على كل أنا واثقة تماماً أنني لن التقي بأي إنسان قد يعوض عليّ خسارة رافنسكراج.

وقال السيد بريستون بحدة «إنك تخاطرين مخاطرة كبيرة».

- هذه وجهة نظري... من كل ما سمعته أظن ابن عمي غير متحمس للزواج مني.

- وماذا تتوقعين يا عزيزتي، فهو لم يلتقِ بك بعد.

واستدارت شفتاها بسخرية وقالت:

- غلطة من هذه؟ كان بإمكانه أن يلتقي بي في أي وقت من هذه السنة التي مضت لو أنه كان مهتماً. كان يمكن له أن يأتي إلى هنا بدل أن يرسلك، أظن أنه كان فظاً على طول الخط.

- لقد كان مشغولاً طوال الوقت، في إعادة تجديد الممتلكات ولم يكن يريد إزعاجك...

- هذا كلام سخيف! لنوضح هذا الأمر فوراً. هو يريد رافنسكراج ولكن لا يريدني، ولكنني ايضاً أريد رافنسكراج، ولن أسمح له بأن يخرجني من بيتي. وإذا كان يريد السكن هناك عليه ان يتوافق معي!....

وتنهد السيد بريستون، فكلام داماريس لا يشير أبداً لزواج سعيد. وقال:

- حسن جداً. ساقبل بهذا، والآن إلى التفاصيل الخاصة. لا تستطيعين السكن في رافنسكراج بينما يسكن السير مارك هناك الى أن تتزوجا.

- ولمَ لا؟... السيدة غارت هناك. الن تكفي لأن تكون وصيفتي؟

- لا.. والسير مارك لا يحب أن يسمع بهذا. فعنده مركزه ومركزك في المقاطعة قيد الاعتبار.

- حقاً؟ إذاً هذا هو السبب وراء رسالة هيلين، هل اتصلت بها؟

- طبعاً.

- وطبعاً دون مشورتي. ومتى ينوي ابن العم مارك ان يفي بما يتعلق به من الاتفاق؟

- إنه يقترح سنة خطوبة، إلى أن تتعرفا ببعضكما أكثر...

وقفزت على قدميها، وعيناها تلمعان. ألم تكن مخطوبة له لأكثر من سنة حتى الآن؟ وقالت بغضب:

- كم هذا لطف منه! حتى الآن أمضيت اثني عشر شهراً في المنفى، حتى أصبح مناسبة له ليسمح لي بدخول بيتي، وخلال هذا الوقت كان ممكن له أن يتفحصني. لم أعد طفلة، سيد بريستون، ليصدر إليّ الأوامر. سأذهب عند كاري لأن ليس لديّ مكان آخر أذهب إليه. وعندما أرى ابن العم مارك لديّ الكثير لأقوله له، أكثر مما يريد أن يسمع. وإلى ذلك الوقت... سأعود عندما تناسبني العودة. فأنا افكر في البقاء في باريس.

- في باريس؟ ولوحدك؟

- مع اصدقاء لي... ولن أطلب الإذن منك، او إذن ابن العم. وتستطيع أن تقول له إنني سأموت قبل أن أتركه يطردني من بيتي!

وأدرك السيد بريستون أن المناقشة لن تجدي. فهذه المراهقة كانت جميلة جداً في غضبها. إنها سريعة الغضب وعنيدة كأسلافها تماماً. وسيلاقي زوجها صعوبة في ترويضها. وهز رأسه الاشيب بحزن، فالسماء وحدها تعرف نتيجة هذا الزواج المدبر الذي لم يكن في مقدوره منعه. وأشار إلى أن مقابلتهما قد انتهت، وعليهما أن يعودا إلى زوجته.

وتحققت زيارتها إلى باريس. وتلقت داماريس دعوة من ابناء عم سيليست، وقبلتها بغبطة. لقد كان أول قرار مستقل لها، لأنها كانت تعرف أن المحامي لم يوافق، وكانت بمثابة صفعة لابن عمها مارك. لتريه أنها ليست مستعجلة لأن ترتبط أكثر مما هو مستعجل.

ابناء عم سيليست كانوا عائلة من أربعة. الأبوان وصبي وفتاة، يعيشون في ضاحية جميلة من العاصمة. وعندما علم الزوجان الشابان أن داماريس غريبة عن باريس، أصرا أن يرياها كل معالمها، حتى أنهما اخذاها إلى قصر فرساي وفاونتن بلو.

كما شملت زياراتهم مقاهي الأرصفة المختلفة حيث يجتمع التلاميذ وتجري مناقشة أي موضوع يمكن أن يوجد تحت الشمس. وأخيراً ها هي داماريس تختلط مع شبان من كلا الجنسين في مثل عمرها.

حوالي منتصف شهر آب، انتهت الزيارة، وعادت سيليست الى فالموند، وهناك امكانية بأن يطلب أحدهم يدها ويرغب والداها أن تلتقي به.

وسافرت داماريس جواً إلى لندن ثم بالقطار. وقابلتها هيلين في المحطة الرئيسة، لأن معظم المحطات الفرعية كانت مغلقة. وفكرت داماريس، لو ان ابن العم أتى معها لكانت بادرة جيدة منه. ولكن لم يكن هناك سواها على

المحطة بانتظارها. وأعادت رؤيتها لمربيتها السابقة ذكريات حادة إلى ذهنها. لم تتغير هيلين أبداً. حتى أنها كانت ترتدي نفس الثياب التي تتذكرها داماريس جيداً، عكسها هي، إذ لم تتعرف عليها هيلين إلى أن ركضت إليها وقبلتها.

- كاري ألم تتعرفي عليّ؟

- داماريس!... ما هذا التغيير الصارخ! لا.. لم اعرفك.. لقد كبرت واصبحت أجمل.

- على السيدة لوبرون أن تنجح بعملها لتستحق أجرها.

وضحكت داماريس بخجل، وعلمت من هيلين أن صديقة لها قد أوصلتها إلى المحطة وبأنها ستعيدهما إلى المنزل عندما تنتهي من عملها في البلدة، وخلال هذا الوقت عرضت أن تشربا الشاي في مقهى المحطة.

بعدما جلستا لتناول الشاي، قالت داماريس:

- أنا سعيدة لأن كل شيء تم على ما يرام، ولكن ماذا بشأن ابن العم مارك؟ هل قال متى هو قادم ليراكِ؟

- لا، لم يقل..

- لم يقل؟ ماذا تعنين؟ لماذا لم يقل؟

- لقد أخبرني السيد بريستون أن عليك حضور حفلة في الشهر القادم بمناسبة عيد ميلادك، حيث ستعلن الخطوبة. ويبدو أنه يرغب في استقبالك ولكن في الوقت المناسب.

وكانت هيلين تتحدث بطريقة جافة، فقد كانت تكره كل هذه الإجراءات وترغب قلبياً بأن تقنع تلميذتها السابقة بتغيير رأيها. واحمر وجه داماريس وقالت بغضب:

- لم أسمع بشيء مهين أكثر من هذا! هل يظن أنني سم؟ سأذهب الى رافنسكراج وأراه في الحال.

- لن يرحب بك، ولن يكون هذا لائقاً. لقد سمعت أن القصر كله قيد الترميم، لذا فما من شك أنه لا يريد أن تريه قبل أن ينتهي.

- ولكنني أحبه كما كان.

- عليك الاعتراف أنه كان خرباً ويحتاج إلى تصليح. ربما يأمل في مفاجئتك.

- لا أريد أن يفاجئني، كان الأفضل ان يستشيرني، يبدو أن ليس لي رأي فيما يفعل.

- الخطوبة ما هي إلا شكليات، واذا تبينت أن هذا الرجل لا يحتمل تستطيعين فسخها في أي وقت.

- وأخسر رافنسكراج؟

- يا فتاتي العزيزة، المكان ما هو إلا أحجار وبلاط، ولا يستحق التضحية.

- ولكنه بيتي، والناس هناك يعرفوني كل عمري، إنهم شعبي، وليسوا له، وانا أنتمي إلى ذلك المكان، على فكرة.. كيف شكله؟ أعتقد أنك رأيته؟

- لا... ومن كل الوقائع يبدو أنه عازب مسن قاسي. داماريس، أتمنى أن تعيدي النظر بقرارك. انت لا زلتِ صغيرة، ألا تدركين أنك قد تقابلين رجلاً أصغر سناً؟ شخص قد تحبينه، ويكون الأوان قد فات.

- أنا لست رومانسية يا هيلين، ولا أظن أن الحب مهم، ولن أخون رافنسكراج لأجله.

- ولا السير مارك؟

- ولا ابن العم مارك.

حانوت ماري بروك للهدايا يقع في شارع فرعي، ويصعد زائره بضع درجات ليصل إلى باحة داخلية مرصوفة بالأحجار والازهار في أواني الزرع. فوق الحانوت ومن خلفه وأمامه هناك أماكن سكنية قليلة.

وقالت هيلين وكأنها تعتذر بعدما اوصلتها صديقتها بالسيارة أمام المنزل:

- إنه منزل صغير، أخشى ان تشعري بالضيق قليلاً.

- لا أمانع أبداً طالما أنني لا أتطفل على حياتكم.

وشعرت بأنها وحيدة وغير مرغوب بها. ولكن ليس لوقت طويل. فقد أقبلت ماري راكضة لترحب بها وتقبلها بحرارة. وقالت صارخة وقد لاحظت توتر داماريس:

- اهلاً بك يا عزيزتي داماريس... لقد سمعت كثيراً عنك حتى أنني أشعر أنني اعرفك.

واقبل خلفها ابنها الصغير، في الخامسة من عمره.

- دايفيد.. تعال وقل مرحباً لخالتك داماريس.

واعترضت داماريس قائلة «اوه.. لا.. ليس الخالة أرجوك. أنا لست كبيرة في السن الى هذا الحد... مرحباً دايفيد».

وتراجع الولد إلى الوراء واصبعه في فمه، ثم اخرج اصبعه وقال:

- لقد أنجبت سول سبعة جراء.

- كم هذا مثير... هل تريني إياها؟

وضحكت ماري، وقال، وهي تحمل إحدى الحقائب:

- لنترك المسكينة ترتاح أولاً..

وأظهر العواء المهتاج، والخربشة أن الكلبين قد تعرفا على صوت داماريس

وأنها لن يرضيا بالاستقرار. واقترحت عليها هيلين قائلة:

- ربما من الافضل أن تتحدثي معها قبل أن يمزقا المكان، سندخل أنا وماري حقائبك.

في الباحة الصغيرة خلف المنزل، جرى لقاء مؤثر، وجن جنون تريس وسول بالغبطة، وكادا أن يوقعانها أرضاً من فرط حماستها. وقال لها دايفد: «الجراء موجودة هنا» وفتح باب عجباً، وخرجت الجراء السبعة وهي تتخبط. وقال دايفد «أحب ان اطعمهم.. ولكن أمي تقول إنك ستعتنين بهم الآن».

- سوف تساعدني بالطبع، وربما ترغب في الاحتفاظ بواحد لك.

فالتفت إلى الفتاة وقال «أنا أحبك». واغرورقت عيناها، فقد كان ابن العم مارك مهمل لها، ولكن الترحيب الذي لاقته من الاصدقاء عوّض عن هذا الاهمال.

لو ان رافنسكراج كانت قريبة لنفّذت داماريس تهديدها بزيارة ابن عمها، ولكن ذلك كان بعيد المنال. كما أن وقتها كان مليئاً بالعمل، لأن تدفق السياح الموسمي قد بدأ وكانت دائمة الانشغال في الحانوت او مطلوب منها أن ترعى دايفد في المنزل، وسرعان ما أصبحا اصدقاء يمضيان وقتهما بملاعبة الجراء.

ومضت الايام متسارعة، واقترب موعد إعلان خطوبتها بسرعة غير متوقعة. وكانت مسرورة بقرب رؤية منزلها أكثر من مقابلة ابن عمها. فهي لا زالت ساخطة من تجاهله لها. وما زاد من جرح مشاعرها أنها تلقت بطاقة دعوة لحضور تلك الحفلة، مع معلومات مطبوعة عليها بأن سيارة سترسل لإحضارها، وبأنها ستمضي الليل هناك. حتى أنه لم يزعج نفسه بالكتابة شخصياً.

- إذاً هناك ابن عم موجود فعلاً، لقد بدأت أشعر أنني أتعامل مع روح دون جسد.

- إنه موجود حقيقة..

في صباح يوم مشرق، دخل دايفد راكضاً، في حالة إثارة كبيرة وهو يصيح «جياد يا «دريس».. تعالي وانظري» ثم استدار وخرج ثانية مع داماريس، وعندما وصلت داماريس إلى الخارج وجدت ثلاثة جياد تقف هناك. وترجل من كان على الجياد، وهمهم واحد منها وصرخت داماريس «شيبا!... إنها شيبا!».

وتعرفت الفرس على صوتها وتقدمت نحوها، لتكبحها الفتاة التي تركبها. وكان هذا كثير على داماريس لتتحمل. وصرخت بحدة: «لا تفعلي هذا! إنها تملك فماً حساساً، وغير معتادة على المعاملة القاسية».

وسمعت صوت رجل بلكنة أجنبية يقول «من هذه، يا روزيتا؟».

- بحق الله.. كيف لي أن أعرف؟ ولكن ربما تستطيع أن تدلنا على الطريق

وقال صوت نسائي آخر «إنها تعرف فرسك والفرس تعرفها. هل هذه بلد، بوسكاسل؟».

وردت داماريس «اجل».

ونزلت المرأة عن الجواد وأعطت الرسن للرجل، وتقدمت نحو داماريس وقالت «إذاً انت داماريس ترهران؟».

- اجل.. هذا انا، كيف تعرفين اسمي؟

كانت هذه المرأة سمراء تشبه الفتاة التي تركب «شيبا» ولكنها أكبر سناً بكثير، وبدت أنيقة، وكأنها في صباها كانت جميلة جداً. ومدت يداها الاثنتين

وقالت «أنا ابنة عمك ايلينا، شقيقة مارك، أنا مسرورة جداً للقائك. من حسن حظنا أن أضعنا الطريق».

وتمتمت داماريس قائلة «اعذريني» وأسرعت لتضع الجرو وراء الباب ثم استدارت لتمسك باليدين اللتين ما زالتا ممدودتين لها. وجذبتها ايلينا نحوها وقبلتها على خديها. وقالت:

- نحن نسكن الآن في رافنسكراج.

ثم التفتت إلى الرجل الأسمر، الذي نزل بدوره عن ظهر الجواد وهو يمسك بالجوادين معاً، ووقف لينظر اليها متفحصاً، وقالت «وهذا زوجي بيدرو دوكوستا وهذه شقيقته روزيتا. قصرنا في الارجنتين قريب من قصر ترهران».

وانحنى بيدرو بطريقة أجنبية، ولكن روزيتا تجاهلتها، بينما أجهدت داماريس فكرها محاولة إدراك هويتهم. وتذكرت أنها سمعت أن ابن العم مارك لديه شقيقة متزوجة. ولكن بما أنها كانت تسكن في اميركا الجنوبية فلم تكن تفكر بها. وأدهشها أن يكون مارك يمتع عائلته في منزلها بينما هي مبعدة عنه، وأن يسمح لروزيتا بركوب فرسها شيبا. وكان عليها أن تقاوم موجة حارقة من السخط وهي تحاول أن تستجيب بطريقة متمدنة لتحية ايلينا، وقالت، وهي تفكر بأنها استغفلت:

- لم يكن لديّ فكرة أنكم اتيتم إلى انكلترا. كان يجب على ابن العم مارك ان يخبرني.

وضحكت ايلينا، وكان عندها ضحكة مرحة، وعلى الرغم من تكدر داماريس فقد شعرت نحوها بالدفء. وقالت:

ـ اخشى أن نكون سرقنا له المفاجأة، لقد كنت أتوق للقائك، ولكن مارك قال إننا يجب أن ننتظر إلى يوم حفلة ميلادك الراقصة في الأسبوع القادم، وإلا كنا أتينا لزيارتك. أظن أنه كان يخطط للقاء دراماتيكي معنا. وها قد أفسدنا له كل شيء.

وقالت داماريس بجفاف «هذا أمر صبياني».

وردت ايلينا «آه.. ولكن الرجال قد يكونون صبيانيين بشكل مدهش».

وقامت روزيتا بحركة تم عن قلة الصبر مما جعل الفرس تتراقص، ورمقت داماريس، وقالت بصوت عميق أجش وبلكنة أجنبية:

ـ اذاً أنت عروس ماركو.

ـ هل أنت اسبانية؟

وابتسمت روزيتا دوكوستا لتبرز اسنانها البيضاء الحادة وقالت:

ـ لا.. بل من الارجنتين، حيث نتعلم التعامل مع الجياد جيداً، هل تشكين في هذا.

ـ انا آسفة، فرؤيتك تركبين شيبا أدهشني...

ـ لقد قال ماركو إنها تحتاج لتمرين.. وبما أنك غير موجودة...

ـ فهمت...

وشعرت بالسخط ثانية، فلم تكن غلطتها لعدم تدريب شيبا، لأن إقصاءها عن البيت، كان بسبب عداء مارك. وبما أنه ملأ البيت بأقربائه فقد كانت أحق بأن تكون هناك من عائلة دوكوستا.

وتدخل بيدرو قائلاً «سيدتي، نحن بعيدون عن المنزل ويجب أن نعود»

وانحنى لداماريس «إنه سرور كبير أن نلتقي بك سينوريتا».

وساعد ايلينا على صعود الجواد، وقفز إلى سرجه بسهولة كفارس خبير. وحيا داماريس. وقالت ايلينا:

ـ وداعاً، سأنتظر رؤيتك ثانية في رافنسكراج.

ولم تتنازل روزيتا لأن تودعها. وعادوا من حيث أتوا. وسمعت صوت روزيتا يقول «ألم يعلّموها كيف تلبس في تلك المدرسة السخيفة؟»

وسألت هيلين «من هم هؤلاء الناس؟» وأجابتها داماريس «إنها شقيقة خطيبي وأهلها، الذين لم يرى مناسباً أن يبلغني بوجودهم».

وتحول سخط داماريس إلى عمل، ستثبت لتلك الجميلة الوقحة أنها تعرف كيف تلبس! واستأجرت سيارة وأخذت معها هيلين ودايفد. وذهبت الى المدينة مسلحة بدفتر شيكاتها. وتجولت في مركز التسوق الجديد الجميل فيها. واختارت ثوباً ابيض اللون وفضي، طويل، فضفاض، فيه كثير من الحرير فوق الساتان، دون اكمام ويكشف عن الصدر والظهر، مرصع بالحلى الماسية، واشترت حذاء فضياً وربطة شعر فضية. ولم تستطع تفسير شوقها لمنافسة ابنة دوكوستا، بل كانت تشعر بأن تعبير روزيتا المزدري قد جرحها. وأكملت ملابسها بمعطف سهرة مخملي بأكمام طويلة، مزين بالفرو الأبيض.

صباح يوم عيد ميلادها، تلقت هدايا من اصدقائها، وقدّم لها دايفد الصغير حدوة حصان فضية لتزيدها على اسورتها. وسألها:

ـ انت لم تتلقي مثلها من قبل.. أليس كذلك؟ وستحبينها أكثر من الكل..

ـ أجل يا حبيبي، سأحبها كثيراً. وهي أكثر واحدة جالبة للحظ.

ووصلتها رسالة وبطاقة من سيليست أخبرتها عن خطبتها وتمنت عليها أن تحضر حفل زفافها. وأرسل لها السيد بريستون تحياته كالعادة، أما مارك فلم يرسل شيئاً، ولكن لا بد أنه سيقدّم شيئاً لها خلال الحفلة، وربما يكون الخاتم الذي طال انتظاره، وأخذت تشعر بالاضطراب حول تلك الامسية. سيلتقيان حقيقة بعد طول انتظار، وكيف سيرحب بها؟ وكيف لو أثبت أنه لا يطاق؟ ولكنها فكرت، محاولة إقناع نفسها، بأنه في النهاية من عائلة ترهران، ويجب أن يكون هناك شيء مشترك بينهما. وايلينا لم تظهر سوى الود والتقرب.

مظهرها بعد أن ارتدت ثيابها الجديدة، جعل ثقتها بنفسها تزداد، لأن المرآة أظهرت أنها فعلاً جميلة، طراز الثوب الطويل أعطاها بعض الطول، وأبرز استدارة جسدها. وكان لرباط الشعر الفضي تأثير كلاسيكي عليها وهو يشد شعرها إلى الوراء، بينما بدت رقبتها وذراعاها بلون مشمشي باهت من أثر الشمس، ووضعت الظلال حول عينيها بحيث تظهران أكثر اخضراراً. وصاح دايفد وقد رآها في زينتها «أووه.. ريس.. انت تبدين كملكة الثلج».

ولسوء حظها، كانت السيارة التي أتت لتأخذها تذكير آخر بكل ما كانت تحاول ان تنساه، لأنها من نفس ماركة ولون السيارة التي كان يملكها كريستيان. الرجل الذي كان يقودها لم تكن تعرفه، ربما يكون موظفاً جديداً. وأخذ منها الحقيبة الصغيرة التي حضّرتها لتمضية تلك الليلة هناك، ووضعها في صندوق السيارة بعد أن فتح باب المقعد الخلفي لها. وضعها المنعزل في الخلف كان دلالة عما سيكون عليه وضعها في المستقبل. ولكن ما أن خرجت بها السيارة عن الطريق الرئيسي، إلى الطريق السهلي الذي يقود نحو المزرعة

حتى، أزالت المناظر المألوفة كل تفكير من ذهنها. لم يكن الظلام قد حل بعد وكان نور شفق أيلول يكشف عن كل اثر حبيب من الاراضي التي من حولها، يعيد لها ذكرى طفولتها وجدها.

ومرت السيارة مسرعة عبر المزرعة، حيث كانت تعرف الجميع هناك، وتوقعت أن يكون بعضهم في حفلة عيد ميلادها وأسعدتها هذه الفكرة. ثم بدت الكنيسة الصغيرة ببرجها المربع، والمنازل البيضاء تحيط بها، وأخيراً انعطفت السيارة إلى المدخل، وظهرت لها واجهة المبنى الحبيبة. كل نافذة كانت تشع بالأضواء، تظهر من بين الستائر المفتوحة. لا بد أن السير مارك يرحب الآن بكل الجيران الذين كان يرحب بهم جدها.

وتوقفت السيارة أمام باب المزرعة، التي كانت مفتوحة على مصراعيها. ونزل السائق ليفتح الباب لها قائلاً:

ـ سأحضر حقيبتك سيدتي.

وسارت نحو المدخل. وسمعت همهمة الأصوات وصوت الموسيقى الناعمة، ووقفت عند الباب لتنظر إلى منظر غير مألوف لها للقاعة الكبيرة المربعة التي تغيرت كثيراً. ثريا ضخمة كانت تتدلى من السقف المرتفع، وكسيت الأرضية بألواح جديدة تخفي الارضية الحجرية القديمة. كل ألوان الازهار الصيفية الرائعة كانت مرتبة حول الجدران. وبدا لها كل شيء غريباً. وبدأ الغضب يتملكها. كيف يجرؤ على تغيير كل شيء!

كان السقاة يجيئون ويذهبون عبر الردهة، يحملون الصواني المليئة بالكوكتيل.

وظهرت مجموعة من الضيوف بينها وبين السلالم التي تواجهها. واستقبلتهم

ايلينا، التي كانت تلعب دور المضيفة لمارك. وبينما كانت داماريس تقترب منهم، مر مجموعة من الرجال في طريقهم إلى قاعة الرقص بينها وبين ايلينا. ووقفوا جانباً ليسمحوا لها بالمرور. وهم ينظرون إليها بإعجاب. ثم تعرّف إليها أحد الجيران الذي كانت تعرفه من أيام الدراسة، وصاح قائلاً:

ـ آنسة ترهران! هل هذا أنت حقاً؟

ـ أجل هذا أنا.

ومدت له يدها وهي تحاول تذكر اسمه، وهز يدها بترحاب وتطلعت إلى الرجال الآخرين. متسائلة من منهم هو ابن عمها مارك. وسمعت صوت ايلينا يقول:

ـ داماريس يا عزيزتي...

ولمحت داماريس من ورائها روزيتا، كانت تبدو جميلة جداً بثوب أسود مفتوح العنق وعلى كتفيها شال اسباني رائع. كانت تقف بين رجلين في ثياب السهرة، أحدهم كان بيدرو، ولكن داماريس كانت تنظر إلى كل شيء عبر ضباب أغشى عينيها بالدموع، لأن واحداً كان غير موجود هناك: السير هيوغ تريهران جدها، التي كانت هناك لتحقق رغبته، وتربط نفسها بوريثه، حتى يستطيعا معاً المحافظة على الإرث.

وتمتمت ايلينا: «كم تبدين جميلة، تعالي لتقابلي مارك».

ولفت ذراعها على خصر الفتاة. وتطلعت داماريس من حولها بحثاً عن الرجل الفضي الشعر، الذي كانت تعتقد أنه ابن عمها، ولكنه كان قد اختفى. وقادتها ايلينا نحو الرجل الأطول بين الرجلين اللذين كانا مع روزيتا، وكان يقف مديراً ظهره لهما، ورأسه منحني ليهمس شيئاً للأرجنتينية، ونادت

ايلينا اسمه، ونظر إلى الأعلى، وتقدم نحو داماريس وهو يمد لها يده.

ـ أهلاً بك يا ملكة الثلج. أرى أنك ارتديت أجمل الثياب للحفلة.

والتقت نظرتها المجفلة بالعينين الزرقاوين الجميلتين نكريستيان تريفور. وشهقت قائلة «أنت؟».

ـ أجل يا داماريس.. أنا.. ابن عمك مارك.

٥ ـ ابن العم مارك

بينما كانت داماريس تصعد الدرج، وأفكارها مرتبكة، التقت بمدبرة المنزل، السيدة غارث، التي كانت تنتظر وصولها بشوق. كانت قد تغيرت قليلاً: شعرها أصبح أكثر شيباً وجسمها ممتلىء اكثر، ولكنها لا زالت تلك المرأة الحنون التي عرفتها منذ نعومة أظفارها، وصاحت السيدة الطيبة: «أوه يا آنسة داماريس، أنا سعيدة جداً لرؤياك! ستنزلين في غرفتك القديمة، لا بد أن توم قد أحضر حقيبتك الآن، تعالي يا عزيزتي».

وقادتها إلى غرفة النوم الصغيرة في آخر المنزل، وعند رؤيتها تدفقت عليها أمواج الذكريات. تحت بدا المنزل غير مألوف لها، ولكن هنا كل شيء كان كما تذكره تماماً. على هذا الفراش الضيق نامت ليالي طفولتها، الرف الذي يعلوه يحمل كل كتبها الحبيبة، بما فيها كتاب «موت آرثر». على الجدران كل الصور القديمة التي تحبها، النوافذ المغطاة بالستائر، تفتح، كما تعرف جيداً، إلى ناحية البحر.

وتابعت السيدة غارث كلامها: «اعتقدت أنك تفضلين أن تكوني هنا، على الرغم من أن السيدة دوكوستا كانت تريد أن تضعك في غرفة أمامية».

ـ أستطيع القول إنني سعيدةٌ للعودة إلى غرفتي، ولكن هذا ليس إلا لليلة واحدة.

ـ اوه.. يا آنسة.. السيد قال إنك ستبقين هنا لعدة أيام.

ـ اصدقائي يتوقعون عودتي غداً.

لم تكن ترغب في إطالة بقائها هناك، فهي بحاجة لأن تكون لوحدها لتفكر وتعيد ترتيب أوضاعها. مشاعرها في تلك اللحظات كانت مشاعر غضب. فكريستيان أو مارك لم يكن عادلاً في لعبته، عندما التقاها أول مرة كان يعرف تماماً كل شيء منذ أن قالت له اسمها. لقد أتى متسللاً إلى رافنسكراج ليتعرف على ميراثه وعلى عروسه ووجدها جاهلة. وهكذا أرسلها إلى المدرسة لتصبح صالحة له، ثم أتى الى ڤالموند ليستقصي النتيجة، دون الكشف عن هويته. وقادها متعمداً للكلام عن مارك، وتفحص إخلاصها. وتمتع بخداعه لها. لقد كان يعتقد أن لا قلب لها وكان مصمماً على أن يظهر لها وكأنه من المرتزقة. ولكن إذا كان قد تخيل أنها ستستسلم له طوعاً الآن، فسيجد قريباً أنه مخطىء. فما زال لديها بعض الكبرياء. ولن تدعه يربح لعبته.

وخلعت معطفها، وصرخت السيدة غارث إعجاباً بجمال ثوبها:

ـ يا إلهي آنسة داماريس، لقد كبرت وأصبحت سيدة جميلة.

وابتسمت داماريس ساخرة بمرارة «إنها من صنع السير مارك».

ـ لو أن جدك يراك الآن، لكان فخوراً بك.

ـ أوه... أرجوك.

ـ ولكن السير مارك سيأخذ مكانه، سيجعلك تعيشين براحة إنه رجل عظيم.

ـ انا سعيدة لأنك تعتقدين هذا... لقد كنت أظنه أكبر عمراً.

ـ أنت لا يلزمك رجل مسن يا فتاتي، صحيح أن السير مارك ليس ولداً، ولكنه أفضل هكذا، فالمكان بحاجة إلى رجل عالم بالأمور ويملك الجرأة لإدارته، لقد طال إهماله.

وبدأت داماريس ترتجف وقد أدركت الورطة التي وقعت فيها، حتى الآن كان ابن عمها غامضاً، إنسان ضبابي. وكانت قد كيفت نفسها على فكرة الزواج منه باتزان. ولكن كريستيان مارك، القوي والمقلق، كان نوعاً مختلفاً. وتذكرت كيف أنه في ڤالموند لاحقها بقدره الغازي، ولكنه لم يشر أبداً إلى أنه يحبها. وتركها تعود إلى جنيف مؤمنة بأنها لن تراه ثانية. لقد عانت العذاب وهي تسعى لخنق المشاعر التي أيقظها فيها، ولم يهتم أبداً، أو حتى يعيد النظر، بمشاعرها. وهو يعلم بأنها ستعود في النهاية إليه. في القاعة هنا، رأت الانتصار في عينيه بعد ان أجبرها على إنكار حبها له.

وأتاها قرع على الباب مع صوت مألوف: «هل أستطيع الدخول؟» وبدأ قلبها يخفق. وفتحت السيدة غارث الباب وهي تقول: «أجل يا سيدي» وأزاحها مارك جانباً ودخل ليقف خلف الطيف الابيض أمام المرآة. وقال:

ـ لقد أتيتك بهدية عيد ميلادك. اظن انها ستكون رائعة مع ثوبك.

لقد نسيت ان اليوم عيد ميلادها. والتقت عيناه بعينيها في المرآة.

ـ لقد قلت لنفسي إن من الصعب أن اجد شيئاً يماثل لون عينيك، لذا لم أحاول، ولكنني أعتقد أن هذا سيناسبك.

وأمسك بشيء لامع، وتقدم منها ليضعه على عنقها. وتوهج العقد الماسي بلون النار..

ـ إنه جميل جداً... ولكن ما كان يجب عليك... لا بد أنه غالي الثمن.

ـ أنا لست فقيراً حتى بدون رافنسكراج. في الواقع هذا العقد هو إرث عائلي. من غيري يهديك الجواهر؟

واستدارت لتواجهه، وهي تمسك بالطاولة وراءها بكلتا يديها.

ـ هل تحاول شرائي؟

ـ ألم أشتريك بعد؟

والتفت للسيدة غارت وقال «تستطيعين الذهاب الآن» ولكنها ترددت، وقد هزها شعورها بالإخلاص، فضحك وقال لها مذكراً:

ـ الآنسة داماريس ستكون زوجتي.

ـ حسناً يا سيدي.

وخرجت، ولكنها تركت الباب مفتوحاً وراءها، ونظر مارك الى داماريس متفحصاً. وعيناه تجولان من رأسها النحاسي اللون الى حذائها الفضي وتعودان ثانية إلى وجهها.

ـ السيدة لوبرون قامت بعملها بنجاح معك يا عزيزتي.

ـ انا سعيدة بأنك راض، ولكنني لست راضية.

ـ لا؟.. ألم تتأكدي جيداً من المنزل الذي طالما فكرتي به؟ أولست سعيدة لاكتشافك أنني لست عجوزاً؟ فأنا فقط فوق الثلاثين بقليل يا داماريس. مع أنني اعتقد أن هذا السن يبدو بعيداً عن سن المراهقين.

ـ أنا لست مراهقة. اليوم أبلغ العشرين، كما تعلم، وعمرك لا يهمني. ما لا يعجبني هو التنكر. هل كان من الضروري أن تخدعني؟

ـ الخداع كان بالألفاظ فقط. اسمي كريستيان مارك ترهران من «كورويلز» وليس من «ويلز» هل هذا يستحق التوبيخ؟

ـ اجل.. لأنك استغليتني متعمداً، وأول ما التقينا لم تعطني اسماً أبداً. لا «ويلز» ولا «كورويلز». لا بد أن ما وجدته على الشاطىء صدمك عندما قلت لك من أنا.

ـ كان منظرك بالتأكيد غير متوقع. ولكن الذي صدمني أكثر إعلانك أنك مخطوبة لي.

ـ ولكنك تعلم شروط الوصية. ولهذا اتيت أليس كذلك؟

ـ أتيت لأكتشف ماذا ينتظرني. ولكن الوصية لم تقلقني، كان من الممكن أن نجد طريقة نلتف عليها. ما أقلقني إصرارك على الزواج بابن عمك. على كل، قبل أن اتركك كنت قد قررت أن لديك إمكانيات تستحق التطوير.

وتملكها الغضب، كم تعاطى معها بكل برود وكأنها مهر سباق، لو دربت جيداً قد تصبح يوماً فرساً للسباق، وتابع كلامه بهدوء:

ـ في فالموند، علمت كم كنت على حق، ولو أنك لم تكوني عمياء بذلك التصور الوالدي الذي اخترعتيه، لكنت خمنت من أكون. إيلينا تقول إن التشابه العائلي لا يمكن أن يخطىء.

ـ لم اكن أعرف أحداً من العائلة سوى جدي..

وبدأت تتفرس به، وقد رأت فيه الآن بعض الشبه بلوحات الرجال السمر الشبيهين بوجه الصقر المعلقة في غرفة الطعام، أسلافها وأسلافه، المتغطرسين وقساة الطباع، ومن تعرف أنهم كانوا إما بحارة او مغامرين. وقالت بحزم:

ـ لا فرق... لقد كان عملاً لئيماً. وأنا لست تحرياً. ولم أستطع مطالبتك بإبراز هويتك.

وضحك وقال «أوه داماريس.. دعك من هذا.. هل كان كثيراً عليّ أن أشاهد الأرض قبل أن ألتزم بها؟ ربما كنت ستغيرين رأيك، وعلى كل الغزل في الخفاء يجعل الرومانسية أجمل».

ـ ولكنك لم تغازلني، لقد غازلت سيليست.

ـ وغلطة من هذه؟ كان عليّ أن أطري إخلاصك لابن عمك مارك، ومع ذلك سأقول لك الآن إنك لن تجديني أبوياً أبداً.. ولكنني لم أكن مسروراً أبداً بتلك الفرنسية السمجة التي دفعتيها عليّ.. إنها...

ـ أرجوك . . سيليست صديقتي، أعز صديقة لديّ، وستأتي لحفلة زفافي، وأنا ذاهبة لحضور زفافها.

ـ اوه . . يا إلهي . . أتمنى أن يأتي زوجها معها.

ـ وهل تعتقد أن هناك زفاف.

ـ طبعاً . . وكما تعلمين، هذه الليلة هي للاحتفال بخطوبتنا، وسأعلنها عند تناول العشاء، وهذا يذكرني بأن عليك أن تضعي هذا في يدك.

وأخرج شيئاً من جيبه وتابع:

ـ ارجو أن يكون مناسباً، لقد تم تلميعه، قال لي السيد بريستون إنه خاتم خطبة عائلة ترهران، كان لوالدتك، وجدتك من قبل.

ولم تتحرك لتأخذه. فأمسك يدها ووضعه في اصبعها، واخذ ينظر اليها مستفسراً:

ـ ما بك يا داماريس؟ لقد وافقت على هذا العقد . . أليس كذلك؟

عقد! وتسمرت عيناها على الحجر الأزرق الناري للخاتم. إذاً هكذا يعتبر الزواج . . كما كانت تعتبره هي حتى الآن . . وكما قال، لقد اشتراها بثمن منزلها. لو أنه تكلم عن الحب لكان الأمر مختلفاً. حتى أنه لم يزعج نفسه بالتظاهر بعاطفة لا يملكها أبداً. لقد قالت له منذ البداية إنها ستتزوج ابن عمها مارك، ولم يكن عليه أبداً أن يجهد نفسه لخطب ود فتاة كان يمتلكها بالفعل. وقال بصوت يخلو من المعنى:

ـ أجل لقد وافقت، ولكن اعطني بعض الوقت لأتعود على الوضع . . . لقد كانت مفاجأة لي . . .

وتحركت نحو الباب وسمعته يقول:

ـ أرجو أنها كانت مفاجأة سارة.

ـ هذا ما أحاول تقريره . . .

واستدارت إليه، وعيناها تتحداه. وأخذت تفكر . . اوه . . . لا يا كريستيان مارك، لن أرتمي بين يديك مثل الثمرة الناضجة، وقد اخترت انت الآن الكشف عن قناعك. قد تكون اشتريت موافقتي، ولكنك لم تشتر حبي وهذا يجب عليك أن تكسبه. وتابعت كلامها ببرود:

ـ ألا يجب أن ننضم لباقي الضيوف؟

ومشت بسرعة نحو الممر، ولم يلحق بها إلى أن وصلت آخر الدرج، حيث كانت ابلينا تنتظرهما. وسألتهما بقلق:

ـ اين كنتما؟ لقد بدأنا الرقص دونكما.

ـ لقد كان عليّ أن ألبس الخاتم لخطيبتي، سوف ندخل الآن.

ودخلا الغرفة معاً، حيث لاحظت أن أصحاب المزارع وأصحاب النفوذ من الجيران كانوا مجتمعين هناك، مع زوجاتهم وابنائهم الكبار. ومرت داماريس حول الغرفة ببطء تسلم باليد على كل من كان واقفاً لا يرقص. وعرفها الكثيرون وهنأوها على مظهرها. وكانت مسرورة لانها أدهشتهم. ثم طالبها مارك بأول رقصة فالس معها. وقال لها «لقد خطفت أنفاس الجميع» وردت عليه بخفة «أجل. . فالبطة البشعة تحولت إلى بجعة جميلة. والفضل للسيدة لوبرون».

ـ انت قاسية على نفسك. فالحورية التي قابلتها عند الشاطىء كانت تمتع النظر.

ـ مثل الماس الخام، والتي قررت أنها بحاجة إلى صقل.

ـ داماريس لا تكوني ساخطة. انت تعرفين أنك كنت محتاجة إلى ثقافة إضافية.

- والتي حاولت متابعتها حيث توقفت المدرسة. ماذا كنت فعلت لو أنني وقعت أسيرة سحرك في فالموند؟ أكنت تخليت عني لأنني عابثة؟

- لم أنس أبداً من أنت وما هو مقرر لك.

- فعلاً؟ ولكنك لم تتصرف كسيد نبيل معي. في الحقيقة أنا مندهشة منك سير مارك ترهران! فقد نسيت هناك كإمتك كفارس.

- لم تكوني يومها تلك الصغيرة الباردة العواطف كما تحاولين الظهور الآن... حسناً يا ملكة الثلج... أقرّ أن خداعي قد ازعجك، ولكن عليك أن تستسلمي لي في النهاية.

واحمر وجهها ثم شحب، إنه واثق من نفسه ومنها، ومع ذلك فهي غير مستعدة بعد أن تذعن له. فهي بحاجة إلى تطمينات. بعض دلائل الحنان، الحب المتبادل، ولكن هذا الرجل الأسمر الذي يقود خطواتها الراقصة بمهارة يبدو أنه غير قادر على إعطاء الحنان.

وعندما انتهى الرقص، قال لها «علي أن أقوم بواجبي مع جيراننا، وأنا متأكد أنك لن تفتقدي شريك رقص لك».

وكان هناك العديد من المعارف، أو هكذا قالوا لها، ليطلبوا منها منحهم شرف الرقص معها، وبدورهم عرّفوها على ابنائهم الذين كانوا تواقين لمراقصتها. وألقت نظرة على مارك وهو يجاهد في الرقص مع الفتيات، والنساء الجميلات، ولكنها لاحظت أيضاً أنه ألزم نفسه بالرقص مع روزيتا أكثر مما هو مطلوب منه. وبدا ان جسد الفتاة الجميل يذوب بين ذراعيه وأن وجهها كان يعلوه تعبير الإثارة عندما تكون معه. إذاً فهي ضحية أخرى من ضحايا مارك، وأخذت الشكوك تغزو فكرها. هل يبادل مارك الارجنتينية الجميلة المشاعر؟ ولكنها نسيت كل هذا عندما أخذها مارك إلى طاولة العشاء، وأعلن هناك

وسط التهاني عن خطوبتهما.

ولم تنته الحفلة قبل ساعات الصباح الأولى. ووقفت داماريس الى جانب مارك ليودعا ضيوفهما. وكان آخر المغادرين مستأجر ارض قديم، أخذ يتذكر السير هوغ عندما كان قوياً وداماريس عندما كانت طفلة، وعندما رحل أخيراً وجدت داماريس أن مارك قد اختفى. وتوجهت نحو غرفة الاستقبال وترددت قبل أن تدخل. لقد بدت فارغة إلى أن لاحظت خيال روزيتا من أحد النوافذ. كانت تتحدث إلى شخص ما لم تستطع داماريس ان تعرف من هو، وتتحدث بالإسبانية. هل هو مارك؟ وانسحبت داماريس بسرعة، ودعتها ايلينا من غرفة الطعام.

- تعالي يا عزيزتي لتناول فنجان قهوة، فأنت بحاجة له بعد هذه السهرة.

ودخلت إلى غرفة الطعام لتجد ايلينا مسترخية على كرسي مريح، بينما بيدرو يتناول شراباً دافئاً.

ونظرت الى الغرفة التي كانت يوماً مألوفة لها، وهي الآن خالية من الضيوف، ورأت ان التغيير قد شملها ايضاً. فقد حل مكان المدفأة القديمة تقليد لها على الكهرباء. وحلت الستائر المخملية مكان القديمة على النوافذ، كذلك تغير الكثير من الأثاث.

وتقدم بيدرو منها وقال وهو يرفع كأسه «في صحتك سنيوريتا! وحق الله أنا احسد مارك!».

وسألتها ايلينا اذا كانت ترغب في شراب ساخن. وابتلعت داماريس غضبها لأنها غير ملومين على ما يحصل، وطلبت كوباً من الحليب البارد. وشهق بيدرو قائلاً «حليب!» ثم ابتسم وأردف «هل هذا هو سر الورود التي على وجهك؟».

فابتسمت داماريس لهذا الاطراء وقالت «ربما.. ولكن الورد يذبل».

وسألتها ايلينا بلطف، وبدت أنها ترغب حقاً في مصادقتها:

- هل أنت تعبة؟

- قليلاً...

لقد كانت تلك الليلة متعبة أكثر مما توقعت. وقدم لها الحليب. ولم تظهر روزيتا ولا مارك. وقالت داماريس بأدب:

- لقد كان كل شيء ممتعاً. لا بد أنك عملت بجهد. شكراً لك كثيراً.

- اجل، أعتقد أن كل شيء كان على ما يرام. لقد كان لقاءاً مختلطاً، ولكن مارك قال إننا يجب أن ندعو جميع من له صلة بهذا المكان. لقد كان كالسيد الكبير... أليس كذلك؟ لقد تمتع بكونه اللورد الجديد للمقاطعة. وأنت بدوت جميلة جداً.

- شكراً لك.. والآن.. اعذراني فإني ذاهبة إلى النوم.

كانت باردة في قولها، اذ يبدو أن الجميع تناسى أنها «ليدي» المقاطعة منذ ولادتها. وها قد أصبح دورها ثانوياً. ونهضت ايلينا وقالت:

- طبعاً يا عزيزتي.. سآتي معك لأتأكد من حصولك على كل ما تريدينه.

وبينما هما تقطعان الردهة، خرج مارك وروزيتا من الغرفة المقابلة، وبدا مارك مرتبكاً، ولكن وجه الفتاة كان عليه علامات الرضى.

وقالت ايلينا وهي ترمق شقيقها باستنكار:

- داماريس تريد الذهاب للنوم.

- بهذه السرعة؟

وتقدم نحو داماريس ولكنها تراجعت نحو الدرج وقالت:

- لقد أصبح الوقت متأخراً جداً، أو بالاحرى باكراً. تصبحين على خير روزيتا.. تصبح على خير مارك.

ولم تنظر اليه، وبدأ الكلام قائلاً «ولكن داماريس...».

ولم تلتفت اليه، بل أسرعت صاعدة الدرج. وفي الأعلى توقفت ونظرت إلى الخلف، ورأت مارك وهو يضع يديه في جيوبه وقد علا العبوس وجهه، وينظر اليها. ورأت ايضاً روزيتا تقترب منه وتدس يدها تحت ذراعه.

عندما أصبحت وحيدة في غرفتها، سارعت إلى النافذة وفتحتها ودخل الهواء مباشرة من البحر إلى الغرفة واستطاعت أن تسمع اصوات الامواج من بعيد. وخلعت العقد الماسي ورمته فوق طاولة الزينة، ثم خلعت الخاتم ببطء واخذت تديره بين اصابعها... خاتم خطوبة آل ترهران... لم تكن قد شاهدته من قبل.. ربما كان محفوظاً في خزانة المصرف. كان من المفترض أن تكون في حالة من السعادة لاكتشافها ان أول رجل مس عذرية قلبها هو الرجل الذي ستتزوجه، ولكن هناك حية في جنتها، على شكل فتاة بقسمات إسبانية وتمتلك كما هو ظاهر الأولوية في اهتمامات مارك. ولم يدهشها أنه لم يكن مستعجلاً للقائها ولديه هذه الفتاة لتلهيه. لم تكن تتوقع الحب، ولكنها لم تكن تتوقع ان تكون لها منافسة على زوجها. يبدو الآن أن مارك مستعد لتنفيذ الاتفاق، ومقاسمتها رافنسكراج، ولكن دون أن تكون لديه النية في إعطائها قلبه، فهو يعتبر أن هذا ليس جزءاً من الاتفاق. كان من حقها أن تعترض على علاقته بروزيتا، ولكنها تصورت النظرة الساخرة التي ستبرز في عينيه عندما سيشير إلى أنها كانت مستعدة لقبول ابن عم مجهول، دون النظر الى ارتباطاته، في سبيل الاحتفاظ بالإرث. صحيح أن روزيتا ستسافر، ولكن مارك يمتلك مزرعة مجاورة لمزرعة عائلة دوكوستا، وسيذهب دائماً لزيارة المكان وزيارة روزيتا. وهمست لنفسها قائلة:

- اوه.. يا جدي.. لم تكن تدري ماذا فعلت. لقد بعتني لرجل يحب امراة اخرى.

وألقت بالخاتم قرب المقعد الذي اشتراها به مارك، كما قال، واندست في الفراش وهي تشعر بالقلق.

ايقظتها السيدة غارث وهي تدخل اليها الفطور. ولأنها شابة، وصحتها جيدة، وتعبة فقد نامت نوماً جيداً على الرغم من روحها القلقة. ونظرت إلى ساعتها وصرخت «يا إلهي! الوقت متأخر جداً!».

- لم يستيقظ أحد بعد. ما عدا السيد، لقد ذهب إلى لانكستون في عمل. هؤلاء الغرباء، إنهم لا يستيقظون، ولا ينامون ايضاً. سيعود السير مارك وقت الغداء، وترك لك معي كلمة، إذا كنت تحبين أن تركبي الخيل معه بعد ظهر اليوم.

- ولكنني كنت أنوي العودة الى بوسكاسل هذا الصباح.

- لا تستطيعين ذلك يا آنسة. فالسيارة مع السير مارك. اوه.. يا آنسة.. من الأفضل أن تبقي هنا وترعي شؤونك

- ماذا تعنين؟

- يا آنسة.. لا يجب أن أقول شيئاً.. ولكننا جميعاً نريد عودتك إلى هنا. تلك المرأة الاجنبية الساقطة لا يمكن الوثوق بها.

وخرجت السيدة غارث. واستلقت داماريس على الوسادة. إذاً حتى العمال في المزرعة قد لاحظوا الوضع! وشعرت بالألم والإذلال. وحاولت جهدها أن تأكل شيئاً، خوفاً من أن تجرح إحساس السيدة غارث إذا لم تفعل، ولكن الطعام كان من غير طعم. هل تستأهل حتى رافنسكراج تضحيتها بكبريائها؟ وهل من الممكن أن تتغاضى عن هذا الوضع الثلاثي؟ وتذكرت بابتسامة

مرتجفة أن سيليست اقترحت عليها وضعاً مماثلاً لعلاقة أدوارها مقلوبة. وهذا أمر لن تقبل به أبداً.

وقرع الباب ودخلت ايلينا ترتدي ثياب النوم، وشعرها الاسود الكثيف في ضفائر. الطابع الإسباني ظاهر عليها أكثر من شقيقها، فمارك كان يشابه عائلة ترهران، بينما هي لها البشرة البيضاء بلون الكريم والعينان السوداوان اللامعتان لأهل امها.

- هل نمت جيداً يا عزيزتي؟

- اجل.. شكراً لك.

وجلست ايلينا عند نهاية السرير وقالت:

- من المؤسف جداً أننا لم نلتق من قبل. كان يجب عليّ أن أعرف عمي الكبير هوغ. فمن كل ما عرفته يبدو أنه كان رجلاً عظيماً.

- لقد كان عظيماً. لقد انقلبت الدنيا في عينيّ عندما مات.

ووضعت ايلينا يداً حانية فوق يدها. وقالت:

- لقد تخلى عنا عندما تزوج ابي من ارجنتينية. كان متعصباً جداً. ولم يكن ذلك الزواج ناجحاً. فقد هربت أمي في النهاية، الم تعرفي بهذا؟

- كل ما عرفته عنكم، أن لديّ ابناء عم في الارجنتين.. أنا.. أنا آسفة. هل كنت كبيرة عندما.. ذهبت؟

- كنا في سن المراهقة، ولذا اعتقدت أننا نستطيع تدبير أمرنا بدونها، ولكن ذلك صدم مارك كثيراً. لقد كان يحبها، وشعر أنها هجرته. اذا وجدت مارك قاسياً وساخراً، فهذا هو السبب. فهو يجد صعوبة بأن يحب ويثق بأحد ثانية، ولكنه بحاجة للحب.

- الا نحتاجه كلنا؟ ولكن مارك لا يحتاج للحب مني. فكل ما هو مهتم

به . . رافنسكراج .

وبدت ايلينا مندهشة : «وما يجعلك تظنين هكذا؟ لقد رغبت دائماً في أن يتزوج ويستقر، كان دائماً مثل المجنون، يتجول في كل العالم. ولكن عندما علمنا بموت والدك، علم أنه قد ورث في الواقع اللقب وأصبح مهتماً بكورنويل. لقد كان والدي يتحدث كثيراً عنها. وأعتقد أنه أخر زواجه إلى أن يصبح لورداً إنكليزياً. وعندها يعيش هنا».

وضحكت داماريس ضحكة قصيرة: «مسكين مارك. لم يكن يعتقد أنه سيرثني أيضاً. هل كان يعلم بوجودي؟».

ـ طبعاً . . ولكن كونك فتاة لا يمكن لك ان ترثي اللقب . . لقد تصورنا أن . . .

وتوقفت، وقد بدا عليها الحرج. وأكملت لها داماريس:

ـ لم تتصوروا أن جدي سوف يشترطني، على الأقل بالطريقة التي قام بها.

ـ لقد كانت الطريقة الأفضل. على الرغم أن من المؤسف أنك لم تلتقي بمارك قبل الآن، لأن عمي الكبير كان ينوي دعوته للإقامة معه.

ـ اجل كان ينوي، ولكنه لم يعرف بانه سيموت فجأة. لقد . . . تحدث معي حول الأمر.

ـ لقد ترك رسالة لمارك يوصيه بالعناية بك، ومن الطبيعي أن يشعر مارك بمسؤوليته عنك، وبما أنك وافقت على الزواج منه، وهو بحاجة الى زوجة بريطانية لتكون سيدة القصر، فقد بدا الترتيب مناسباً جداً ولا أرى اي سبب لعدم نجاحه. فالعديد من الزيجات المدبرة تنجح.

كانت داماريس خلال كلامها تفكر بشيء آخر. فسألتها:

ـ منزل زوجك قريب من منزل مارك أليس كذلك؟ أعتقد أنكم تشاهدون بعضكم كثيراً.

ورمقتها ايلينا بنظرة مرتبكة وقالت:

ـ المسافات هناك اكبر من التي هنا، أميال وأميال من السهول. سنسافر قريباً. وعندما نعود لحضور زفافك، ستبقى روزيتا هناك. لم أكن اريد احضارها معي، إلا أنها جنت كي تشاهد إنكلترا، وكنت أعتقد أن العلاقة القديمة قد انتهت.

ـ هل تعنين أنه كان هناك شيء بين مارك وروزيتا؟

ـ بعض الاستلطاف فقط، ولا شيء جدي . . . أنت تعرفين الأمور بين الشبان.

ـ لا . . انا لا أعرف. لم أُرِبْ بهذه الطريقة.

وضحكت ايلينا بصعوبة وقد أدركت أنها تورطت بالكلام وقالت:

ـ أنت لا زلت صغيرة ورومانسية. إذ لا يتزوج الإنسان حبه الأول دائماً. وأنا واثقة أنك ومارك سوف تتفقان.

وربتت ايلينا على يدها وتابعت:

ـ سوف تركبان الخيل أنت ومارك بعد الظهر، أليس كذلك؟ إذا لم تجلبي معك ثياب ركوب، سأعيرك.

ـ شكراً لك . .

ولم يرجع مارك إلا بعد أن بدأ الغداء. وصدمت داماريس عندما رأته يجلس مكان جدها على الطاولة، ومع ذلك بدا واحداً من آل ترهران. وعلى الجدار من خلفه، لوحة له، وقد بدت فيها عيناه زرقاوان تحت حاجبيه السوداوين، وبدا التشابه كبيراً، لقد كانت عمياء اذ لم تلاحظ هذا من قبل.

وعندما طلبت داماريس السيارة لتوصلها إلى حيث تسكن عند المساء، رفع

مارك حاجبيه وقال:

- انت مستعجلة على الذهاب. لقد اعتقدت أنك ستمضين بضعة أيام معنا.

- لم اكن أعلم بهذا. ولم أحضّر نفسي.

- ألا يمكن الاستغناء عنك هناك؟ اعتقدت أنك تعملين بحريتك.

- لقد توليت بعض المسؤوليات.

وأدارت روزيتا نظرتها الوقحة إليها وقالت بازدراء:

- لا تقولي إن عليك ان تخدمي في ذلك المحل السخيف. ان هذا يحط من قدرك.

- ابداً، هذا غير صحيح أبداً. في الواقع أجد سروراً عظيماً في العمل.

وهل تتوقعين مني أن أجلس لألعب بأصابعي خلال الاثني عشر شهراً القادمة؟

ونظر إليها مارك، وقد علم أنها تتحداه وقال:

- ربما لا حاجة لنا للانتظار كل هذا الوقت إذا كان الانتظار مملاً.

- لن أضجر ابداً. وأفضل أكثر أن التزم بالاتفاق الاصلي.

وضحكت روزيتا بخبث، وقالت ملمّحة:

- من الممكن حدوث الكثير خلال سنة.

فابتسمت داماريس لها بعذوبة وقالت موافقة على كلامها «أجل... هذا ممكن».

وارتدت داماريس ثياب الفروسية، ونزلت من غرفتها وهي تشعر ببعض الخوف، لتجد مارك ينتظرها وهو يمسك شيبا وحصان آخر أسود كبير. وصهلت شيبا عندما تعرفت على سيدتها، وأعطتها داماريس تفاحة أحضرتها لهذا الغرض. وساعدها مارك على امتطاء الفرس، وانطلقا معاً. وفوق السهل الواسع، حثت شيبا على الركض، وأخذت تقفز فوق الجدران والاسيجة بسهولة. وصرخ مارك من خلفها «أتسابقيني؟»، وبدأ الاثنان في السباق، ولكنها لم تستطع مجاراته، فهو فارس ممتاز. وعلى قمة المنحدر توقف مارك وانتظر. وتوقفت بالقرب منه، وقد بعثر الريح شعرها، ووجهها أحمر من جراء التمرين. وراء المنحدر يمتد الخط الساحلي يغسله بحر هادىء شديد الزرقة، يعكس السماء، ولكن زرقته لا تضاهي زرقة عيني مارك. واستدارت على سرجها لتنظر الى رافنسكراج وهي تنتشر امامها، قطع من الحقول الخضراء، تحدها الشجيرات، ومزارع بيضاء بسقوف رمادية مائلة، الأبقار الحمراء والخراف البيضاء، لا ينقصها سوى الغابات وقالت له:

- جهدك في دراسة الغابات كان دون فائدة.

- بما أنني قضيت معظم عمري على اراضٍ لا أشجار فيها فإن الأشجار تثير اهتمامي. إضافة إلى أنني كنت بحاجة إلى عذر كي أذهب إلى فالموند.

- ودونالد، اين وجدته؟

- اوه، لقد وضعت إعلاناً في الجرائد لهذا الغرض. ما الأمر يا ملكة الثلج؟ لم تفعلي سوى تعنيفي منذ وصولك إلى هنا.

ومالت الى ذكر روزيتا، ولكنها تراجعت، فقد يظن أنها تغار، ولن تعطيه

مجالاً للرضى بالأمر. وانحنى وهو على ظهر حصانه لينظر في عينيها، وتمتم «من أين لك هاتين العينين؟ عيون عائلة ترهران إما زرقاء أو سوداء؟».

- وكيف أعرف؟ أظن أنها من تناسيل قديم.

- أتعود الى فيفيان ساحرة مارلين.

- اوه.. لا تكن سخيفاً. أنا عائدة إلى المنزل.

وهمزت شيبا، ولكنه سارع للإمساك بلجام الفرس.

- ولمَ العجلة؟ هل انت خائفة من وجودك لوحدك معي؟ ستمضين ما تبقى من عمرك برفقتي، لذا أليس من الأجدر أن تتعرفي عليّ أكثر؟

- اعرف ما يكفي.. والباقي يمكن ان ينتظر.

- انت حادة وباردة!

- اوه.. وما يهمك؟ لم نتظاهر أبداً أننا سنتزوج من أجل اي شيء سوى المصلحة المشتركة، أليس كذلك؟

- وهل هذا صحيح؟ اتعرفين يا داماريس، لم أكن لاصدق ابداً انك ستعامليني هكذا.

- كنت تتوقع طفلة مطواعة، وقد كيّفتها لك جيداً تلك المدرسة التي ارسلتني إليها، ولكنني لن أدعك تستأسد علي!

وترك لجام فرسها وارتد إلى الخلف وقال بهدوء:

- انا لا أريد أن أستأسد عليك.

- إذاً... لا تضايقني أكثر من اللزوم. ولا حاجة لك للادعاء، فأنا اعرف أنك لن تتزوجني لأجل الحب.

- الحب؟ وما هو الحب؟

وبدأت شيبا بالتململ، وردت عليه داماريس بفظاظة:

- إنه شيء لن تفهمه ابداً!

وتذكرت متأخرة أن ايلينا اخبرتها أن هذا الرجل قد أصيب بالالم من جراء خيانة أمه لحبه لها، وأن عليها ان تتحدث معه بلطف اكثر، ولكن هذا لا يعطيه الحق بإيلام الاخرين، كما يؤلمها. وتركت العنان لفرسها، وانطلقت تجري مع الريح. وسمعت من ورائها رعد الجواد الأسود، واعتراها نوع من الرعب من تلك الملاحقة. وحثت شيبا على الإسراع أكثر، ولم تخفف من سرعتها إلى أن شدت لجامها في باحة الاسطبل.

وأقبل السائق تـوم ليأخذ فرسها. ووصل مارك، وحاجباه السوداوان مقوسان بتقطيبة شريرة، وصرخ بها، وهو ينظر الى جنبي الفرس اللاهثة:

- أليس عندك تفكير سليم حتى تركضي بهذه السرعة؟

وسارعت داماريس الى تـوم تسأله بقلق، وقد ادركت أنها بذعرها، قد انهكت الفرس «هل أذيتها؟».

- ستكون بخير يا آنسة، سأجففها جيداً وألفها ببطانية إلى أن تبرد...

وابتعد بالفرس، ولحقه مارك يجر حصانه. وركضت داماريس إلى داخل المنزل لتغتسل وتغير ثيابها. واغتسلت، ثم خرجت من الحمام الى غرفتها، وطوت ثوبها الابيض بحذر ووضعته في الحقيبة. وأخذت تفكر. مارك ذلك الغريب، الأسمر، ذو الشخصية المرعبة، الذي يمسك بمستقبلها بين يديه القويتين، قادر، على تحطيم قلبها، وسيفعل. ولكن قد لا يكون الأمر هكذا. فهي مخطوبة له فقط، ويمكن لهذا الرباط أن ينفصم. لقد قبلت بالأمر لأنها تريد أن تعيش في رافنسكراج، ولكنها الآن له وليست لها، ويستطيع أن يفعل بها ما يشاء، مهما اعترضت، وهو سيد المكان، وسيدها. وهي لا تريد سيداً

بل زوجاً. وبما أنها قابلته الآن، وقد كان مجهولاً لها، فقد أدركت نوع العلاقة التي ستعيشها معه، وتصاعد الدم إلى وجهها. فالرغبة دون الحب كانت تثير اشمئزازها، فلا بد انه قد يتصورها روزيتا وهي بين ذراعيه.

وأقبلت خادمة تدعوها لتناول الشاي، وهبطت إلى غرفة الجلوس الصغيرة، حيث كانت كل الاشياء القديمة لا زالت فيها. ووجدت روزيتا تجلس في مقعدها المفضل، وبيدرو مستلق على الصوفا. وايلينا تصب الشاي، إنهم مجموعة عائلية، ولكنها لا تنتمي إليهم، فقد شعرت أنها غريبة. ولاحظت ببعض الراحة أن مارك ليس موجوداً، وأجابتها إيلينا على نظرتها المتسائلة:

- مارك لا يتناول الشاي عادة إنها عادة انكليزية لم يكتسبها بعد، ولا زوجي كذلك. بما أنك تقولين إن عليك الذهاب فالسيارة ستكون حاضرة عند الساعة السادسة، ولكن يجب أن تعودي لنراك قبل سفرنا.

ووقفت روزيتا وهي تقول «ساخرج قليلاً فانا بحاجة إلى تمرين، وبما ان الخيول تعبة، فسأتمشى. وداعاً آنسة ترهران عندما أعود ستكونين قد ذهبت»

وعندما غادرت الغرفة قال بيدرو «ماذا أصابها؟ إنها لا تحب المشي».

وقالت داماريس «لا بد أن تعب شيبا قد أزعجها، وانا آسفة، ولكن الفرس لي.. على كل الاحوال» وقالت ايلينا موافقة «نعلم هذا، ولو كنا سنمكث هنا كثيراً لاشترينا لها فرساً، وانا آسفة لأنها استخدمت فرسك للركوب» وأجابت داماريس بسرعة «لا بأس فالفرس كانت بحاجة للتمرين».

لم تكن الفرس ما أزعج روزيتا. ومارك استمر في الغياب. وعند السادسة والربع ذهبت داماريس إلى الاسطبل لترى إذا كانت شيبا قد استعادت نشاطها. ووجدت توم هناك يتفحص السيارة وقال لها:

- هل انت جاهزة للذهاب الآن يا آنسة؟

- وهل ستوصلني أنت؟

لقد كانت تتوقع أن يوصلها مارك بنفسه. وأجاب توم:

- إنها أوامر السيد. سأحضر لك حقيبتك.

- حسناً، ليس لديّ سوى وداعهم.

واتجهت عبر الحديقة مختصرة الطريق، ولم تكن اصوات قدميها مسموعة، وعند استدارة بعض الشجيرات، توقفت وكأنما اطلق عليها النار.

على احد جوانب المرج الذي كانت تقطعه، كان هناك فتحة بين الشجيرات الطويلة، تكشف عن مربع مخفي هو كناية عن ساعة شمسية قديمة، وهو مكان كانت تلعب فيه وهي طفلة. وعبر الفتحة استطاعت أن ترى شخصين متقاربين، وسمعت صوت روزيتا وهو مليء بالعاطفة تقول:

- ماركو.. من المستحيل عليك أن تتزوج تلك الفتاة المضحكة. أنت تعلم أنني احبك، وأنا زوجتك الحقيقية وليست هي.. نحن نفهم بعضنا.. أوه يا حبيبي...

وغيرت كلامها الى الاسبانية، ولم تستطع داماريس فهم رد مارك لانه كان بالاسبانية ايضاً، ولكن صوته الخفيض كان يحمل الكثير من العاطفة.

وركضت مبتعدة. في فالموند كانت تعتقد أنها تحبه، ولكنه لم يتحدث إليها بمثل هذه العاطفة التي سمعته يرد بها على روزيتا. وأدركت بتعقل أنها ستدمر حياتها لو أنها جنّت بما فيه الكفاية لتربط حياتها بمارك، فالغيرة قد تستمر حتى ولو أن الحب مات، ولو أنها فقط لا تهتم، تستطيع ان تقبل بهذا الوضع دون أن يتحطم قلبها. ولكنها مهتمة. فلمسة مارك لا زالت تثيرها، رغماً من أنها

تحتقره وتكرهه. والاستسلام له سيكون إذلالاً كاملاً لها. حتى من أجل رافنسكراج سيكون هذا الثمن باهظاً، والمزرعة قد تغيرت، والمنزل لم يعد يعني لها ما كان يعنيه في حياة السير هيوغ ترهران. ولن يبقى عليها سوى أن تخلص نفسها من هذا الوضع اليائس. فروزيتا على حق فالزواج من مارك ترهران مستحيل...

٦ ـ هروب

وصعدت مسرعة إلى غرفتها، فتشت في عمق الحقيبة، وأخرجت العلبة التي تحتوي العقد الماسي منها. ووضعتها على طاولة الزينة، ثم نزعت الخاتم من اصبعها... وواجهتها فكرة سيئة.. فالأشياء هذه ثمينة جداً لتتركها هكذا لتغري الخدم. ولكنها لن تأخذها معها، كما أنها لا تريد أن تثير مشكلة بردها إلى إيلينا أو مارك. ستؤجل المناقشات وتوجيه الاتهامات إلى وقت آخر حيث يكون أصدقاؤها من حولها، وقد تطلب من السيد بريستون أن يبلغ مارك بقرارها، وفتحت الجارور ودسّت العلبة والخاتم تحت كومة أوراق كتابة بقيت هناك من أيامها الماضية. شخص ما في يوم ما سيخرج هذه الأشياء من مكانها وفيما بعد، إذا تذكرت، ستتأكد من إبلاغ مارك بمكان المجوهرات.

وأعادت إقفال حقيبتها وتقدمت نحو النافذة لإلقاء نظرة أخيرة منها وقالت بصوت مرتفع «سامحني يا جدي، ولكنك كنت رجلاً فخوراً بنفسك، ولا تريدني أن أشارك زوجي بامرأة أخرى».

وقرع توم الباب، وسألها إذا كانت جاهزة، فأعطته الحقيبة، ونزلت لتجد إيلينا وبيدرو بانتظارها. وقالت ايلينا متعجبة:

ـ ولكن أين هو مارك؟ بيدرو، أذهب وابحث عنه.

ـ ارجوك لا تفعل.. أنا.. لقد شاهدته في الحديقة وودعنا بعضنا... إنه.. إنه مشغول.

www.liilas-romancia.com

وأسرعت لتصعد السيارة، وهي تدرك أنهما ينظران إليها باستغراب.

وعندما ابتعدت السيارة عن الأنظار التفتت ايلينا الى زوجها وقالت:

ـ ماذا حدث؟ هل تشاجرا؟

ـ إنهما عنيدان. فقد ولدا قاسيين.

ورمقته ايلينا بنظرة غاضبة، فقد لاحظت بوضوح غياب مارك وروزيتا.

ـ من المؤسف أنك لا تستطيع ضبط شقيقتك. والمؤسف أكثر أننا لم نتركها هناك.

هز بيدرو كتفيه «لقد أصرت على المجيء. ولكن عندما نعود سأخطبها لمانويل راموس، لقد آن لها أن تتزوج».

ـ كان يجب عليك أن تفعل هذا قبل الآن. أعتقد أنك تأخرت.

عندما شاهدت هيلين داماريس في المنزل قالت مستفسرة:

ـ حسناً.. كيف تم الأمر؟.. تبدين مرهقة.

ـ ليس هذا عجيباً، لم أنم قبل الرابعة صباحاً.

ونظرت هيلين الى يدها الخالية من الخاتم.

ـ أين هو؟ بالتأكيد قد ألبسك خاتماً.

ـ لقد تركته هناك... أنا... لقد غيرت رأيي. أليس هذا من حق المرأة؟ كاري.. يجب أن أذهب غداً لأرى السيد بريستون. أريد أن أعرف وضعي إذا لم أتزوج مارك.

ـ إذاً، لقد أعدت التفكير بالأمر.. ألم يكن السير مارك كما توقعتي؟

ـ إنه مخادع أكثر من أي انسان. وقد قررت أنني لن أكون سعيدة معه.. هل تعتقدين أن بإمكاني إبقاء فرس في غرفة الغسيل؟

ـ توقفي لحظة! وأين بإمكانك بناء الاسطبل؟

ـ هذا يتوقف على السيد بريستون. قد أتمكن من استئجار باحة في مكان ما.

ـ إذاً ستعيشين معنا بصورة دائمة؟

ـ إذا كنتم تقبلون بي.

ـ وهل أنت بحاجة للسؤال؟

مكتب السيد بريستون، بولدارك، وبريستون، يقع في مبنى في شارع ضيق. ودخلت رأساً إلى مكتبه، وتحرك السيد بريستون من خلف طاولته لتحيتها. وتبادلا التحيات، وأجلسها على مقعد من الجلد ثم عاد إلى مكانه ونظر إليها متفحصاً عبر نظارته.

ـ حسناً يا عزيزتي.. ماذا حدث لتأتي إليّ مسرعة؟ لقد قلت إن المسألة ملحة.

وأخبرته كل شيء، وتجمد وجهه بالحيرة وهي تقص عليه القصة التي لم تذكر فيها اسم روزيتا. وقال محتجاً بعد أن انتهت:

ـ ولكن، يا فتاتي العزيزة، لقد اعتقدت أن كل شيء قد اكتمل. السير مارك كان هنا يوم أمس لمناقشة الترتيبات.

ـ لقد خدعني السير مارك.

ـ هيا.. هيا يا فتاتي. لا بد أنكما تشاجرتما كالعشاق عادة.. وضحكت داماريس بمرارة وهي تركز على كلماتها:

ـ صدقني.. ليس هناك حب مفقود بيني وبينه. في الواقع عواطفه مرتبطة بشخص آخر.. وبناء على هذه الظروف، أعتقد أن الزواج منه سيكون غير أخلاقي.

وتجهم وجه السيد بريستون، وقال بلطف:

ـ لقد كنت بعيدة كثيراً عن الأنظار يا داماريس، ولا تعرفين شيئاً عن الرجال. والسير مارك رجل راشد، ولا يمكن أن تتوقعي لرجل بمثل عمره أن يكون دون ارتباطات سابقة، وسيتغير كل شيء بعد أن يتزوج طبعاً.

ـ لا أستطيع أن أكون متأكدة من هذا.. إنه نصف أسباني. أليس كذلك؟
ـ أمه كذلك ولكنك تعرفين هذا. وما الفرق؟
ـ اللاتينيون غير مخلصين.
وارتبك السيد بريستون وأجابها بحدة:
ـ السير مارك هو وصيك.
ـ لاأحتاج إلى وصي بعد الثامنة عشر. لذا فليس له حق قانوني عليّ.
ـ لقد دفع مصاريف تعليمك.
ـ كنت أخشى هذا.. ولكن تعليمي كانت فكرته وليست فكرتي. كنت أفضل عدم الذهاب الى هناك.
ـ وماذا تقترحين بالضبط أن نفعل؟
ـ كما قلت لك أنا مستعدة لأتخلى عن المطالبة برافنسكراج. أظن أن لديّ دخلاً يكفيني، وإذا لم يكن لديّ، فسأبدأ عملاً أعيش منه.
ـ أعتقد أن دخلك يكفيك إذا لم تسرفي. وعندما تبلغين الواحدة والعشرين، سيكون الرصيد كله في تصرفك.
ـ عندها أستطيع أن استثمره في عمل ما.
ـ لا بد أن الأنسة كارو قد أثرت عليك. إنها لم توافق أبداً على وصية السير هيوغ.
ـ لم تؤثر عليّ.. ولكنها عرضت عليّ منزلاً أقيم فيه. وهذا ما أنا بحاجة إليه. أحب أن آخذ اغراضي في المزرعة. كتبي، صوري، وفرسي.
ـ هذا أمر معقول تماماً. وأظن أن السير مارك سيكون كريماً. ولكنك خطوت خطوات متقدمة كي تتراجعي الآن. لقد أعلنت الخطوبة، وستنشر في كل الجرائد المحلية.
ـ أجل أعتقد هذا.. يجب أن نترك الأمر قليلاً، ثم بعد ذلك نستطيع ان

نذيع خبراً صغيراً جداً، نقول فيه إن الزواج لن يتم.. على كل كان مقرراً ان يتم بعد سنة.
ـ حسناً يا داماريس.. سأرسل لك تفصيلاً كاملاً عن مدخولك بعد أن اتحدث مع السير مارك. أنت مستعدة لتسوية ما كما أعتقد. فيما يتعلق بحصتك من الأملاك سأطالب بأغراضك الشخصية وفرسك.
وتنهدت بارتياح وقالت «هناك شيء آخر.. أريدك أن تدبر كل شيء عني، فأنا لا أريد رؤية السير مارك».
ـ أتعنين أن الخطبة لن تفسخ حسب اتفاق مشترك؟
ـ لا.. اريدك أن تبلغه ما قلته لك. أريد منك.. الحماية.
ـ اتركي كل شيء لي. مع أنني لن أعود وصياً عليك، اتمنى أن أبقى دائماً صديقاً لك.
ـ شكراً لك. على الأقل لم يخطىء جدي بنظرته إليك. أعلم انني أستطيع دائماً أن أثق بك.
عندما خرجت إلى الشارع شعرت بالسعادة. لقد أصبحت أخيراً متحررة من ظل ابن العم مارك. فقد سمحت له لمدة طويلة أن يمسك بمستقبلها. ولن تفكر برافنسكراج، مع أنها ستبقى حيث هي. وعندما يذهب مارك إلى الأرجنتين. ستركب فرسها إلى هناك وتتبادل الحديث مع السيدة غارث، ولكنها لن تذهب إلى الشاطىء، فقد أفسد عليها المكان. لن تستطيع ثانية دون أن تتذكر لقاءهما الأول. ويجب عليه أن يبحث عن سيدة ملائمة للقبه، ولن يفتش في مكان بعيد. وتنهدت بحسرة ففكرة أن تكون روزيتا سيدة رافنسكراج شيء لا تستطيع التفكير فيه.
عندما عادت إلى المنزل أخبرتها ماري أن السير مارك ترهران حضر لزيارتها

خلال غيابها. لا بد أن السيد بريستون اتصل به فوراً بعد أن غادرت داماريس مكتبه، ولم يضع الوقت ليحضر ويطلب منها تفسيراً. وكانت شاكرة لأنها لم تلتقي به. وقالت ماري:

- إنه رجل وسيم وجميل، ولقد قلت له إنك خرجت مع دايفيد، وبالطبع اعتقد أن دايفد هو صديقك، وهذا ما قصدته.

- حسناً إن هذا حقيقي. إنه صديقي. أفضل صديق لديّ أليس كذلك يا صغيري.

وأخذت تفكر ببعض الفزع بأنها متفائلة جداً لتتصور أن مارك سيتقبل قرارها بسهولة. فهو متغطرس جداً، ولا يتحمل أبداً عدم نجاح خططه، أو أن يسمح لنفسه أن يخذل على يد محام. ولكن عندما يهدأ غضبه سوف يدرك بالتأكيد أنها قد اتخذت السبيل الوحيد الممكن للخروج من المأزق. لذلك فسيتركها بسلام. وبرزت لديها فكرة:

- هل كان لوحده؟

- لا. لقد كان معه فتاة جميلة، تلك التي أركبت دايفد على الفرس.

إذاً.. لقد كان من الوقاحة بحيث يجلب معه روزيتا. هل يظن أنها عمياء لا ترى ما يجري حولها؟ وتملكها الغضب، إذا عاد ثانية، ستقول له دون مراعاة لأي شيء رأيها بهذا الأمر.

بعد أن صعدت داماريس إلى غرفتها لحقت بها هيلين، بينما كانت تحضّر الفراش. لم يكن هناك مكان سوى للسرير وطاولة زينة صغيرة وكرسي. ومعظم ثياب داماريس كانت معلقة في الممر. وقالت هيلين وهي تجلس على المقعد:

- المكان ضيق عليك هنا

- انا لست كبيرة الجسم. ولم يكن لديّ أبداً غرفة نوم كبيرة. غرفتي في المدرسة كانت محراب راهبة، مناسبة لي أليس كذلك؟

- هل أنت أكيدة أن هذا ما ترغبين به؟ داماريس، أنت تعلمين انني لم أوافق أبداً على خطط السير هيوغ لك. ولكن هل أنت أكيدة بأنك اتخذت القرار المناسب؟ فأنت تبدين غير سعيدة.

- بل أنا سعيدة تماماً...

- ماري تقول إن السير مارك جميل جداً، وإنه جذاب.

- أجل وبشكل كبير وهذا لمصلحته.. ماري.. أنا... لقد قابلته مرتين من قبل.. لقد ادّعى أنه شخص آخر. لم يكن مستعداً لشراء فتاة جاهلة مثلما كنت، وعندما قرر أخيراً أنه يستطيع العيش معي ضبطته يطارح فتاة أخرى الغرام. تلك الجميلة التي قالت عنها ماري، وعلاقتهما كانت منذ زمن بعيد.

- ولكنه مهتم بك.

واستدارت داماريس في مقعدها لتواجهها، وعيناها تلمعان وقالت بغضب «أنا أكرهه»! وصدتها مربيتها قائلة «لا تتصرفي كالأطفال» فصرخت بعنف «لن أقبل أن ألعب الدور الثانوي... في هذه المهزلة»! وقالت هيلين «قد لا يكون الأمر جدياً».

وتذكرت ذلك المنظر العاطفي الذي شهدته فارتجفت قائلة:

- إنه في نظري جدي كثيراً.

ووقفت هيلين وتقدمت إليها، ومررت يدها لترفع الشعر عن جبهتها، وتنظر بحنان الى عينيها المحمرتين بالغضب.

- لم تعودي فتاة عادية يا داماريس، في الواقع لقد أصبحت امرأة جذابة، ألست مهتمة به أبداً كي تقاتلي من أجله، ومن أجل رافنسكراج؟

وغطت عينا داماريس رموشها التعبة، وجلست دون حراك وهي تعيد التفكير.

لقد كانت مرة، تركض وراء مارك - أو كريستيان يومها - وهي تكافح في العاصفة وقلبها مليء بالحب واللهفة. وقال لها إنه سيتذكرها دوماً لأنها الفتاة الأولى التي يعانقها وسط العاصفة، وافترق عنها بعدئذ وكأنها غريبة عنه. وتركها تأكل نار قلبها خلال ذلك الصيف في جنيف، ممزقة بين حبها وإخلاصها لابن العم مارك. وماذا كان يفعل هو خلال ذلك الصيف؟ لم يمضه في انكلترا، لقد عاد الى الأرجنتين ليقضيه مع روزيتا. ثم وبتأثيره السهل عليها، طوق عنقها بذلك العقد الماسي، وأصبعها بخاتم أمها، ثم عاد ثانية لروزيتا، يطارحها الغرام، في اليوم التالي لخطوبتها له. ورفعت عيناها القاسيتين كالزمرد إلى هيلين، وقالت بهدوء:

- لقد نسيت أنني لم أنشأ في مجتمع متساهل. لقد علمتموني احترام الحقيقة، والصدق والاخلاص. وانا لا أعتبر مارك ترهران يستأهل أن أقاتل من أجله.

- أنت تعرفينه أكثر مني.. تصبحين على خير يا حبيبتي.

وارتمت داماريس على فراشها غارقة في الدموع.

في اليوم التالي. اتصل مارك هاتفياً، وأجابت داماريس، فقال رداً عليها «هل هذه أنت يا داماريس؟» وعرفت صوته، وغطت السماعة بيدها، وأشارت إلى ماري، فأسرعت للرد ظانة أن المخابرة لها وهمست داماريس قائلة:

- إنه مارك.. قولي له إنني لست هنا، إنني لا أستطيع رؤيته.. أي شيء..

ووضعت السماعة في يد ماري وتراجعت الى الخلف وهي تشعر بساقيها ترتجفان وقلبها يخفق بسرعة. بما أن صوته أثر بها هكذا فمن المؤكد لن تحتمل لقاءه.

- لقد حاولت إقناعه، لكنه عرف بأنك هنا. لا تستطيعين الاستمرار بالتهرب منه يا داماريس. يجب أن تواجهيه وتصارحيه بالأمر.

- ليس لديه الحق بأن يلاحقني هكذا. وليس هناك شيء أقوله له. لقد قال له السيد بريستون كل شيء.

- انه غير راضٍ بهذا، لقد أشار أنه سيتصل غداً، ولكنني قلت إنك لن تكوني موجودة. ولم يصدقني. ولكنك ستأخذين دايفد إلى المدينة أليس كذلك؟

- أجل..

اليوم التالي كانت الشمس رائعة، وكأنها عودة للصيف. وخرجت داماريس مع دايفد الى المدينة. وقضيا صباحاً سعيداً عند الشاطىء. وكان دايفد مسروراً جداً بمنظر البحر. وأخذت تتساءل، والصبي يلعب ويمرح، لماذا يشعر مارك بهذا التوق ليراها. لا بد أنه راضٍ تماماً لأنها تخلت الآن عن المطالبة باي حق لها في رافنسكراج. ربما من المحتمل أنه يريد الاتفاق معها حول تسليمها أغراضها، وبدأت تشعر بالغباء. فإذا كان الأمر هكذا، فلا سبب لها لأن تخاف. يجب أن تحضّر نفسها للقاء المحتوم، وان تأمل بأن تستطيع السيطرة على مشاعرها. فمن الغباء ان تسمح لنفسها بأن تتأثر من فكرة رؤيته. فهو لا يعني شيئاً لها.. لا شيء أبداً.

في اليوم التالي، ارتدى دايفد ثياب المدرسة الجديدة، وبدا كتلميذ مدرسة مثالي.. وتنهدت ماري وهي تراقبه. وقالت له:

ـ أنت تبدو كشاب صغير يا حبيبي.

والتفتت إلى داماريس قائلة «اليوم الأول في المدرسة علاقة فارقة في حياته. لقد خسرت طفلي».

ـ ربما سيكون لديك طفل آخر عندما تتزوجين.

ـ أتمنى ذلك سيكون من الجيد لدايفد أن يكون له أخ أو أخت.

بعد أن غادرت ماري مع دايفد نحو المدرسة. وقعت عينا هيلين على ورقة ملفوفة وصاحت:

ـ اوه.. إنها الجرة التي وعدنا أن نرسلها إلى أحد الفنانين إنه يريدها في مشروع يعمل به. لا بد أن ماري نسيتها.

ـ سآخذها بنفسي، المكان ليس بعيداً من هنا.

ـ اوه.. هل تفعلين هذا؟ هذا لطف منك. سيكون الشاي جاهز عندما تعودين.

والتقطت داماريس الجرة، وخرجت إلى الشارع، وأحست بهبة هواء الخريف ومضت في طريقها بين المنازل، على حافة النهر، ووصلت إلى منزل الفنان الذي يقع خلف أحد المناطق. وخرج من منزله ليرد عليها، شاب طويل ملتحي، وكان يبدو عليه الانهماك في العمل. وأمسك بالجرة قائلاً إنه قد وصل في عمله إلى النقطة التي يحتاجها بها، وودعته بسرعة وانصرفت.

كانت قد قطعت نصف المسافة أثناء عودتها، عندما توقفت فجأة، فقد لاحظت أن طيفاً مألوفاً لديها يحث السير باتجاهها وللحظة توقف قلبها عن الخفقان. بينما أخذ الإحساس المعتاد بقدوم الخوف يتملكها. إذاً هو لم يتخل بعد عن ملاحقتها. وتمالكت نفسها ثانية، وكما قالت ماري، لا تستطيع الاستمرار بالتخفي، ويجب أن تسيطر على أعصابها. فليس من سبب ابداً يدفعها لأن تختبيء من مارك ترهران. كما قررت لنفسها تماماً وقد لا يرغب

سوى بمعرفة متى وكيف ستتسلم أغراضها. وطردت بحزم إحساسها بضرورة الهرب، وفردت كتفيها وتقدمت للقاء مارك.

www.elmamlakaa.com

٧ ـ الرجل الآخر

بما ان اللقاء لا مهرب منه، فقد قررت هيلين أن لقاء في الخارج قد يكون أقل إحراجاً للفتاة من لقاء وجهاً لوجه داخل المنزل، لذا فقد أخبرت مارك أين يجد داماريس. وكان هو قد قرر أن يكون لطيفاً ولكن صارماً معها. وعندما رآها قادمة نحوه بلباسها العادي وشعرها الذي شعثه الهواء، ذكرته بالطفلة التي التقى بها على الشاطىء والتي أثارت اهتمامه بإصرارها أنها مخطوبة له، حتى أن الكثير من انزعاجه تبخر. ووقف لها في الطريق وأخذ يحدق بها فتفحصها بطريقة لا تحبها أبداً وقال:

ـ حسناً يا سيدتي، لقد قبضت عليك أخيراً.

وعلى الرغم من تصميمها على الثبات، فقد أحست بالخوف. كان هناك شيء يخيفها في ذلك الرجل، وهي تعلم أن من حقه أن يغضب. فاستجمعت كل شجاعتها، ورفعت رأسها متحدية وقالت:

ـ ما هذه الطريقة بالكلام! أنا لست ثعلباً كي تطاردني وتقبض عليّ.

ـ بل أنت كالثعلب تماماً، بشعره الأحمر وكل شيء.

ـ شعري ليس أحمر.. أنا آسفة إذا كنت أزعجتك، لقد قالت لي ماري إنك تريدني في شيء، ولكنني لم أعلم أنه ضروري.

ـ وهل تتوقعين ان أنتظر إلى الأبد من أجل تفسير تصرفك غير العادي؟ ماذا تفترضين ان تظن شقيقتي؟ وعائلة دوكوستا؟ إنهم يتوقعون رؤيتك من جديد.

ـ في الحقيقة لست مهتمة بمشاعرهم. أما بالنسبة للتفسير، فلا بد أن السيد بريستون قد اتصل بك. ألم يبلغك كل شيء؟

ـ لقد أخبرني عن رغبتك في الانسحاب، ولكنه كان قد قال سابقاً انه عندما رآكِ في جنيف كنت مصممة على المضي في الزواج. فما بك يا داماريس؟ هل بردت همتك؟

ـ لقد طلبت منه إلغاء خطوبتنا لأنني أدركت أنها غلطة.

ـ يلزم إعلان الخطوبة شخصين كذلك فسخها، ولن أحتمل المراوغة يا داماريس، لذا توقفي عن إعطائي هبة باردة وهبة ساخنة.

ـ أنا لا ألعب. بل أعني ما أقول يا مارك. وليس عندي شيء آخر أقوله لك. لذا أرجوك أن تذهب.

ـ لا تكون سخيفة.. أنت تتصرفين كالطفل المزعج. وهناك طريقة واحدة للتصرف مع الأولاد المزعجين.

ـ أنا كبيرة على أن تضربني على قفاي.

ـ اوه.. لا.. إنه شيء أحب أن أفعله الآن

ومر بهما مجموعة من الأولاد صائحين وتوقفوا لينظروا إلى الرجل الغاضب والفتاة الشاحبة. وقال مارك وقد فقد صبره:

ـ لا نستطيع الكلام هنا. تعالي. سيارتي متوقفة في مكان قريب.

ـ لا شيء يجبرني على الذهاب معك.

وتراجعت الى الخلف باحثة عن مهرب وقال لها من بين أسنانه:

ـ ستفعلين ما أقوله لك. يجب أن نوضح كل هذا. ولن أقبل بنزوات وتخيلات فتاة مدرسة مزعجة.

واستدارت لتهرب منه، ولكنه أدركها في خطوتين سريعتين، وقبض على ذراعها بقبضة ثابتة. وشهقت قائلة: «كيف تجرؤ على هذا».

وبدأ غضبها يتصاعد، وسعت لتحرير نفسها بينما أخذت قبضته تشتد وصرخت بغضب «اتركني، أنت تؤلمني»!

ـ أنت تستحقين الألم. هل تأتين معي بهدوء أم عليّ أن أحملك؟

ـ لن يكون هذا ضرورياً، سآتي معك.

وجرّها بعنف عبر الشارع الرئيسي إلى سيارته. وفتح الباب بيده الأخرى، ودفعها إلى المقعد الأمامي وأغلق الباب وراءها بقوة. وأخذت تفرك ذراعها بينما كان يجلس الى جانبها، وهي تغلي بالغضب. وانطلق بالسيارة بقوة حتى كادت ان تقع عن المقعد. وتطلعت الى حزام الأمان، ولكنها كانت متكبرة جداً كي تضعه. فإذا كان سيخاطر بأن يقتلها فلن توقفه. وخرجت بهما السيارة صاعدة التل نحو الوادي بسرعة هائلة.

كان مارك في اسوأ أوقاته. يتصرف بشراسة. وانعطف نحو طريق الساحل الضيقة. ولحسن الحظ لم يصادفا سيارة في طريقهما. وقاد السيارة بصمت، حتى سارعت إلى كسر هذا الصمت أخيراً:

ـ وأخيراً أصبحت مؤدباً وبالتالي لوحدك هذه المرة.

ـ ماذا تعنين؟

ـ لقد كانت معك الآنسة دوكوستا المرة الماضية.

ـ ولم لا؟ هي تعرف أين تسكنين، وأنا لا أعرف. هل توقعت أن أفتش عن جحر الأرنب كي أعثر عليك؟

ـ ولكن توم يعرف المكان.

ـ توم كان مشغولاً. هل انا مضطر لتغيير ترتيب عمل كل الموظفين لديّ بسبب غباءك؟ وهل يهم من يأتي معي؟

ـ لا أبداً.

إذا كان لا يدرك سوء فعله فلا يجب عليها أن تحذره، وساد الصمت مرة أخرى، إلى أن وصلا الى بوابة تفصل الطريق عن البراري الى يمينها والمنحدر الصخري للبحر على يسارهما. وخلفها البحر وساحله يمتدان على طول الصخور، وأمامها مباشرة مزرعة بيضاء حولها ابقار ترعى. وتوقف مارك، وأطفأ المحرك. واستدار في مقعده ونظر اليها، وقال «حسناً! فأجابته «حسناً ماذا»؟ فقال:

ـ ما الذي جعلك تغيرين رأيك؟

ـ لقد حدث أن رأيتك تعانق روزيتا بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من إعلانك خطبتك لي.

ـ وهل هذا كل شيء؟ أخشى ان يكون عناق الفتيات الجميلات نقطة ضعف لديّ. وهذا لا يعني شيئاً.. كما تعلمين جيداً. ومع ذلك فقد كنت غير حريص على أن لا أدعك تشاهدين الأمر.

ـ لم يكن ما شاهدت افظع مما سمعت.. إنكما.. روزيتا، قالت إنكما تحبان بعضكما وإنني طفلة مضحكة.

ـ حسناً.. ألست كذلك؟

ـ أوه.. أنا.. أنا أكرهك!

ـ ربما.. ولكنك ستتزوجيني. لقد تماديت كثيراً يا داماريس وستجعلينا أضحوكة الريف كله إذا تخليت عني الآن.

ـ لا أهتم البتة..

ـ إذاً يجب اجبارك على الاهتمام. وماذا عن رافنسكراج؟ لقد ظننت انك ستقبلين بأي انسان في سبيل الاحتفاظ بها.

ـ لا.. ليس أي انسان. ليس أنت.

واستدار عنها فجأة.. لقد أصابته هذه الضربة، وشعرت بالانتصار. إنهما الآن معاً غاضبان حتى أن رغبتها الوحيدة هي في إيلام بعضهما البعض. ونظر إلى يديها المرتعدتين المضمومتين معاً.

ـ ماذا فعلت بالخاتم والعقد الماسي؟ هل رهنتيهما.

ـ أوه! كيف تجرؤ على هذا القول؟ لقد تركتهما في القصر...

ـ حقاً؟ أين؟

من الواضح أنه لم يصدقها.. فقالت له أين.

ـ هذه طريقة طفولية في التصرف!

وصرخت به بغضب:

ـ أنت تذكر دوماً أنني طفلة. ومن الواضح أنني لست مثقفة كفاية لأناسبك، فأنا جاهلة جداً و... لا أعرف معنى الحب.

ـ هذا يمكن تجاوزه يا حبيبتي.. وسأكون سعيداً لأعلمك.

وأخذ يبتسم، ولكن دون سعادة، وعيناه فيهما اللمحة الساخرة التي لا تحبها. وتقدم نحوها فصفعته بكل ما أوتيت من قوة على وجهه الساخر. وشاهدت آثار صفعتها واضحة على خده الأسمر إلى أن تصاعد الدم ببطء إليه. ولم تعد تشاهد أي شيء آخر بعدها. وعندما تركها جلست شاحبة وهي ترتجف وجلس وهو يلتقط أنفاسه، وقال بخشونة:

ـ لا أنصحك أن تفعلي هذا مرة ثانية. فلديّ طبع حام جداً.

وساد صمت طويل بينهما، لا يقطعه سوى صوت النورس، وأخذ مارك يستعيد رباطة جأشه، وهي تستعيد السيطرة على أطرافها المرتعدة. ثم قال ببرود:

ـ آسف إذا كنت قاسياً معك، ولكنك كافية لإثارة غضب ملاك.

ـ أنت جلف... شرس كبير وبشع!

وبرز في عينيه شعاع من الرضى. إن لها روح متحدية غير مروضة مثل روحه تماماً. وقال بهدوء:

ـ أجل.. أنا فعلاً جلف وشرس وأنت تكرهيني، ولكنك ستبقين مخطوبة لي. فكري بالأمر يا فتاة. لقد كنت تقولين إن زواجنا هو ما يريده جدك، عمي الأكبر، منذ أن التقيت بي، وأنك تنظرين إلى رغباته بتقديس أو ما شابه.

ـ إنه... لقد اعتقد أنك ستعتني بي.

ـ حسناً.. ألم أفعل هذا؟ لقد أرسلتك إلى أفضل مدرسة في أوروبا وراقبتك.. حتى في ڤالموند. أكنت تعتقدين أنني سأتركك تعيشين مع تلك الطائشة الصغيرة سيليست دون أن آتي لأرى ماذا تنوين فعله؟

ـ كيف تجرؤ على تسميتها هكذا؟ إذا كانت قد تقدمت لك فلأنك شجعتها.

ـ لقد تحدثنا بالأمر من قبل. ألم تدفعيها أنت لهذا؟

ـ لو تركتك على سجيتك لما احتجت لتشجيع. لقد اعتقدتك دائماً ذلك الذئب الكبير الشرير، وأنا مرتبطة بابن العم مارك.

ـ ولا زلت كذلك

وصمتت. كانت تجد صعوبة في تكييف هذا الرجل الجالس بقربها بالفكرة المثالية التي كانت لديها عن مارك ترهران. فذلك الوهم استمر طويلاً بحيث من غير السهل التخلص منه.

ـ أنا أكيدة أن جدي لم يكن لديه فكرة أنك.. كما أنت...

ـ على العكس يعرف تماماً، فأنا واحد من عائلة ترهران، ولم يكن أحد منهم قديساً.

ـ أتعني أنك ملائم لتلك الصورة تماماً.

ـ أشكرك كثيراً، ولكن كل هذا الكلام لا يوصلنا إلى شيء. لا أستطيع فهمك يا داماريس، لقد اعتقدت عندما كنا في ڤالموند... ألم يكن عندك مشاعر أرق نحوي يومها؟

ـ مشاعري كانت نحو كريستيان تريفور، ولكنه غير موجود، أليس كذلك؟

وأدار وجهه عنها، وأصبح تنفسه غير منتظم، فتابعت القول:

ـ أنا لا أحب الخداع. ومهما كانت دوافعك، فقد خدعتني، وتلاعبت معي... ثم هجرتني.

ـ كنت سألتقطك ثانية...

ـ وكيف لي أن أعرف هذا؟

ـ وهل تصورت فعلاً أنني سأتركك تخرجين من حياتي...

ـ لقد تصورت... أترى، لم أكن أدري أنك تركض وراء رافنسكراج

ـ إنه رأي رائع تملكينه عني!

ـ وهل كان والداك يحبان بعضهما؟

ونظر إليها بدهشة، وتكوّر فمه بمرارة «من تحدث معك بهذا»؟

- إنها إيلينا. زواجنا سيكون مثل زواجهما.. أليس كذلك؟

- لا سمح الله.. لقد كان السبب التعاسة التي مرت بها أمي، لذا أريد أن أكون متأكداً... آه.. لا تهتمي بهذا الآن.

وضرب بقبضته على المقود. وقال:

- لقد أشار لي السيد بريستون بشيء لم أفهمه حتى الآن، ولكن ربما كان على حق. اعتقد أن تلك الرحلة إلى باريس التي أصريت عليها....

- وكيف عرفت بأمرها؟

- لقد أخبرني..

- ليس لديك الحق لتتجسس عليّ!

- لقد قلت لتوك إن جدك توقع مني العناية بك. كوني واقعية يا عزيزتي... لا بد أن الأمر هكذا.. أليس كذلك؟ لقد التقيت هناك بشخص ما قررت أن تفضليه عليّ.

افتراضه هذا كان غير متوقع بحيث إنها لم تستطع سوى التحديق به بصمت. وأخذ صمتها على محمل الموافقة فتابع:

- ذلك الولد الذي كنت معه عندما اتصلت بك ما اسمه... إنه يبدأ بحرف «د» من هو.

وأخذت داماريس نفساً عميقاً. فقد نجحت مزحة ماري بأن تعطي التأثير المطلوب، ولأن ترد له الدفعة لكل الإذلال الذي سبّبه لها، وتتعادل مع روزيتا. وإذا كان يحسن اللعب في الخفاء، كذلك هي.

- إنه صبي لطيف جداً، وهو يحبني.

- ماذا يعمل؟

وكان السؤال مفاجئاً ولم تفتكر سوى بخطيب ماري «ديك ايفردت» فاجابت «إنه ميكانيك في كراج وهو ناجح بعمله».

- هل هذا صحيح وماذا كان يفعل في باريس

- الناس يذهبون إلى باريس لقضاء عطلاتهم.

- فهمت.. وهل انت اكيدة أنه لا يجري وراء مالك؟

- إنه لا يعلم أن لديّ مالاً. فالجميع هنا يظن أنني مساعدة ماري بروك.

- ما هذه التركيبة! ميكانيكي كراج ومساعدة محل.

- أشخاص حقيقيون. ولا يهم ما عمل الرجل إذا كان الحب موجوداً.

- إذاً تعترفين بأنك تحبين هذا الرجل.

وفكرت بدايفد، فقالت بكل بساطة «أنا أهيم به حباً».

- ولماذا لم تقولي لي عن هذا الولد الذي... تهيمين به حباً قبل تلك المسرحية يوم عيد ميلادك؟

- وكيف أفعل؟ لم اشاهدك أبداً أمامي، ولم أشعر بأنني حرة. اعني... أن الأمور كانت تبدو مختلفة.

- تعنين قبل أن تكتشفي أنني ابن عمك مارك؟

- تقريباً.

- ولو أنني كنت ذلك الكبير في السن هل كنت قبلتي؟ أكنت استمريت بالاتفاق؟

- لا أعرف.. لم أدرك أن كل شيء تغير إلى أن شاهدت المزرعة. كل شيء بدا مختلفاً.

وابتسم بحزن «كل شيء يتغير يا داماريس.. من الخطأ العودة إلى الوراء».

وصمت، بينما كانت تتأمل الحقيقة في كلماته. لقد رجعت إلى رافنسكراج

وهي تتوقع أن تكمل حياتها هناك من حيث تركتها قبل سنة مع ابن العم مارك كبديل عن جدها، ولكنها كانت قد تغيرت هي أيضاً. لم تعد رافنسكراج تعني لها كما كانت في الماضي، وأدركت مع شعور بالذنب لو أن السير هوغ كان حياً، فإن صحبته لوحدها، لن ترضيها أبداً. وحده مارك لم يتغير، ما زال نفس الجلف المستبد الذي التقت به في ڤالموند، المصمم دوماً على إخضاع الجميع لإرادته. ولكن هذا الرأي كان خاطئاً، كما أظهرت كلماته وهو يقول بهدوء:

ـ لقد رجعت وأنت تتوقعين نسخة ثانية من جدك، فوجدتني أنا، وأنا صغير عليك جداً وكبير في نفس الوقت. والشباب ينجذب إلى الشباب. وهناك فارق كبير في اثنتي عشر سنة. لقد أمضيت سنوات في الكفاح وانت لا زالت طفلة، فاللاتينيون ينضجون بسرعة.

ـ أظن أن هذا هو السبب، فأنت كثير الخبرة بالنسبة لي.

كانت تعلم أن ما قالته زائف. فنضجه وثقته بنفسه هي التي جذبت شبابها إليه، وهي في الواقع لا تهتم بالأولاد من مثل عمرها. وبكل رفق تناول وجهها بين يديه، ونظر في عينيها، وسقطت رموشها لتخفيها. وقال:

ـ كان يجب ان تخبريني فور أن اتخذت قرارك. بدل أن تهربي، ولكنك متعودة على الهرب...

ولاحظت تلك الرنة الساخرة في صوته، ورجف قلبها وتذكرت ڤالموند وتلك الليلة التي هربت من بين ذراعيه. وتذكرت كيف تلاعب بعواطفها بينما طول الوقت كانت عواطفه مشغولة في مكان آخر، فتصلبت تجاهه وقالت:

ـ لقد اعتقدت أن هذا يوفر الكثير من الجدل العقيم.

ـ لم اكن لأصدق... ولكن ما كنت جادلتك، فأنا أعرف متى أكون مهزوماً.

وبدأت داماريس تشعر بالندم لخداعها له حول دايفد، وحدقت في وجهه. واخذ غضبها يبرد ليحل مكانه شعور بالخسارة، فقلبها ما زال يميل إلى هذا الرجل. هل هي بهذا الغباء لتتخلى عن أكثر شيء ترغب به من أجل كرامتها وكبريائها الجريحة؟ إنه لا يزال مستعداً للزواج منها، على الرغم من أنه لا يحبها. ألا يجب عليها أن تقبل به على ما هو بينما الفرصة متاحة أمامها؟ ما عليها إلا أن تعترف أن من اخترعته كحبيب لها غير موجود، وتوافق على الاستمرار في الخطبة. وقد يمل من روزيتا مع الوقت، وللزوجة أفضلية الرابط الدائم. لقد حثتها هيلين على القتال من أجل ما تريد. ومارك له اخطاؤه، ولكنه رجل قوي قادر، ورافنسكراج ستزدهر تحت سلطته. إضافة إلى أنه من عائلة ترهران، وبينها إرث مشترك، وهذا ما يجب أن يساعدها على فهمه ومحاولة إلزامه بها. واندفعت لتلمس ذراعه قائلة «مارك..» ثم ترددت، فالاستسلام ليس سهلاً، وأدار نظره اليها ثانية وكل الغضب والثورة ذهبا عنه أيضاً. والعينان الزرقاوان كانتا لطيفتان، ولكن بعيدتان. وقال بلطف غير معهود:

ـ عذراً، لقد كنت أفكر. لو أنك فقط كنت صريحة معي.. لما أجبرت نفسي على الاهتمام بك. أنت حرة تماماً لأن تذهبي إلى ذلك الولد، ولكن من بعد إذنك اتركي الخطوبة على ما هي لفترة ثم نفسخها بهدوء.

لقد تأخرت، فقد قبل بقرارها وبكذبتها. والفرصة من أجل التعويض

ذهبت. وسألته بقلق «ورافنسكراج» وتصلب وجهه وقال «سابيعها» وصاحت محتجة:

- لا! لا يا مارك.. لا تستطيع أن تفعل هذا!

- إنه الحل الوحيد يا داماريس. فأنت لا تقدرين على العيش هناك، والمنزل كبير جداً عليك، والرجل المرتبطة به ميكانيكي وليس بمزارع.

- ولكنك من عائلة ترهران.. إنك آخر واحد في السلالة.

- هذا لا يعني لي شيء. ففي الأرجنتين سيدعونني السنيور تريدنيو فالأسماء الأنكليزية صعب لفظها على اللسان اللاتيني. وسأعود إلى هناك إلى الأبد.

- وتتزوج روزيتا.

- من الممكن.

- ولكن إذا تزوجتني هل ستبقى هنا؟

- بما أنني لن أتزوجك فهذا الاحتمال بعيد.

وصمتت. واعتراها شعور بالخدر، وأدار المحرك. لقد حصلت اخيراً على حريتها، وتستطيع الآن أن تستقر مع هيلين وماري. ولكن المستقبل بدا لها فارغاً وموحشاً. وانطلق بالسيارة في طريق العودة. وتابع كلامه بصوت يخلو من كل تعبير:

- نصف ما ينتج من البيع لك بالطبع. لقد قال السيد بريستون إنك تريدين فرسك وسأرسلها لك فوراً. كل ما تريدينه من المنزل ستحصلين عليه. وسأراك دائماً. وعندما أجد الخاتم سأعطيك إياه، وأرجوك ان تضعيه في الأصبع المناسب إلى أن تنتهي أيام هذه الخطبة. اذا لم يكن هذا الطلب كثير عليك.

- لا.. ولكن يا مارك... أنا...

وتابع كلامه وكأنها لم تقل شيئاً:

- سآخذ العقد الماسي، لأنه ليس لعائلة ترهران، هو لأمي. إذا سمحت لي.

- شكراً لك يا مارك، طبعاً ليس لدي مانع من أجل العقد، أنت كريم جداً.

- أبداً.. ليس هناك شيء لتشكريني عليه، كل ما قدمته لك هو من حقك.

ووصل الى الموقف، واوقف السيارة وقال:

- هل لي أن أنزلك هنا، فهذا أفضل مكان لي للعودة.

- طبعاً...

- الوداع يا داماريس... سأراك فيما بعد.

- الوداع يا مارك...

وابتعدت ببطء، بينما استدار هو ليمضي في طريقه. خلال هذه اللحظات الأخيرة. حيث تم ترتيب مستقبلها، كان ابن العم مارك كما أملت أن يكون لطيف، أبوي ومترفع. ولم يكن هناك أثر لأي انفعال أو عنف أو غضب مما عرفته عنه.

وكما قال، استمر في رؤيتها من وقت الى وقت. وأخذها لرؤية السد بريستون عدة مرات، إذ توجب عليها التوقيع على بعض الوثائق لإعطائه حرية البيع، وأوراق أخرى لحفظ حقوقها. وكانت أحاديثهما دائماً محصورة بالأعمال. وكان يتجنب كل الأحاديث الحميمة الخاصة، ولم يسألها مرة عما تعمل أو عما تأمل أن تعمله. وفي اللحظة التي يتجه فيها كلامهانحو الخصوصيات كان يغير

الموضوع. حتى تشوقت إلى كسر هذا الروتين، فقالت له مرة:

ـ في مطلق الأحوال لا زلنا أبناء عم. ألا نستطيع أن نكون أصدقاء؟

ـ أعتقد أنني أتصرف كابن عم، لقد أعطيتك كل المساعدة التي أستطيعها.

ـ أجل.. وأنا ممتنة لك كثيراً، ولكنك تبدو بعيداً عني..

ـ يا عزيزتي داماريس... لا تكوني حمقاء.. أنت تدركين بالتأكيد أننا لن نستطيع أن نكون مقربين من بعضنا الآن. فأنت آخر إنسان يمكن أن أعامله كصديق.

ـ لست أرى سبباً لهذا.

ـ كنت أظن أن الأمر واضح.

وأقبل شهر تشرين الأول. وفي صباح أحد الأيام توقفت سيارة أمام الباب، ونزلت منها إيلينا دوكوستا. ولم تكن داماريس قد شاهدتها منذ ليلة الحفلة. ولم يكن مارك يتحدث أبداً عن زواره. وبدت إيلينا جميلة في بذلة سوداء وقبعة إسبانية كبيرة. وركضت داماريس الى الخارج لتحيتها، وعانقتها بحرارة، ولوح لها بيدرو من داخل السيارة، ودعتها داماريس للدخول فقبلت.

ـ لقد أتينا لوداعك، سنسافر بعد غد.

ولاحظت داماريس أنها تنظر إلى يدها التي يزينها خاتم خطوبة آل ترهران، ولكنها لم تشر إلى فسخ الخطوبة. مع أنها لا بد قد علمت بالحقيقة، كما أنها لم تشر إلى روزيتا. وكانت تنظر إليها كمن يتساءل كيف يمكن لأية فتاة أن تقبع هنا في هذا المكان الصغير وتستغني عن القصر الكبير. ترى ماذا قال لها مارك بالضبط؟ ودخلت هيلين وبعد أن تعارفتا اقترحت هيلين عليها أن تزور المحل. فقالت ايلينا:

ـ أحب أن أزوره بالطبع، لا بد أنه سيثير اهتمامي.

وأظهرت اهتمامها بالفعل وتفحصت كل الأشياء فيه، واشترت بعض القطع لتأخذها معها إلى منزلها، وأرادت داماريس أن تقدمها لها هدية ولكنها رفضت وأصرت على دفع ثمنها قائلة:

ـ إنها مورد رزقكم، ولا يجب أن تكونوا كرماء هكذا.

وأشارت مرة واحدة لما حدث قائلة لداماريس:

ـ أنا آسفة لأنني لم أشاهدك كثيراً. لقد كان مارك مشغولاً على الدوام. كان أمامه الكثير ليقرره. وكان الأمر صعباً.. أنت تعرفين ما أعني؟

ـ أجل أعرف..

ونظرت إيلينا اليها وغيرت الموضوع. وعندما حان وقت انصرافها قالت:

ـ أرجو ان تأتي وتزوريني انا وبيدرو بعد أن تتزوج روزيتا. ونحن نحب ان تكوني بيننا.

وشعرت داماريس بالبرودة. إذاً لقد تم تسوية كل شيء. ولم يضع مارك وقته. وشعرت بألم في قلبها، ولكنها استطاعت أن تبتسم وهي ترد:

ـ لطف منك أن تدعيني لزيارتكم، ولكن المسافة بعيدة عنكم.

ـ ليس بالضبط، لأن السفر بالطائرات جعل العالم يصغر، ونحن أقاربك الوحيدون، وبما أننا وجدناك يا ابنة العم الصغيرة، فلا أريد أن أخسرك.

واغرورقت عينا داماريس لهذا الكلام، وقالت بصوت مختنق:

ـ كم هو جميل منك أن تقولي هذا يا ايلينا، كنت خائفة أن تكوني غاضبة مني... بسبب مارك.

ـ ما هذه الأفكار! لا شأن لي بالأمر، وأستطيع القول إن الأمور هكذا هي أفضل.

وخرجت مع إيلينا الى السيارة حيث كان بيدرو ينتظر، وخرج ليحييها وهو يقول:

ـ أنا آسف أننا لم نفعل شيئاً لتسليتك. ولكن عندما تأتين لزيارتنا سيكون الأمر مختلفاً. ستأتين أليس كذلك؟ ستجدين الأرجنتين بلداً جميلاً.

وراقبتهما وهما يبتعدان، وهي تتساءل ما إذا كانت ستراهما ثانية ومتى. وعند أول مناسبة رأت فيها مارك سألته إذا كان يشعر بالوحدة بعد أن سافر أقاربه. وقالت:

ـ المكان كئيب قليلاً في المزرعة هذا الوقت من السنة.

ـ صحيح؟ لم ألاحظ هذا. فأنا أتمتع بالسلام والهدوء. ووكثير من الصيد والقنص.

ـ رياضة دموية! أكره قتل المخلوقات.

ـ أنت شديدة الحساسية، كل شيء سيموت، عاجلاً أم آجلاً.

وبمرور الوقت لم تعد تشاهده كثيراً، كما كانت تتوقع وسألتها ماري ما إذا كان الوقت قد حان لانهاء الخطوبة فقالت لها داماريس والألم يعصر قلبها «سيكون هذا قريباً» وعلمت أن النهاية عندما تحين سيكون هذا آخر رباط لها بمارك.

وأخيراً، قال لها بجفاء بأن الأمور القانونية قد استكملت وأن الترتيبات قد انتهت للإعلان عن البيع. ثم أضاف:

ـ يجب أن تأتي إلى المزرعة لتأخذي أي شيء ترغبين في أن تحتفظي به. سأرتب يوماً مناسباً لك مع السيدة غارث، وسنتناول الغداء معاً.

ـ سأكون سعيدة بإلقاء آخر نظرة على القصر وتوديعه.

ـ أوه.. إنه لن يزول من مكانه... وربما اشترته الدولة عندها تستطيعين

زيارته متى شئت. ربما سأترك اللوحات العائلية ليراها الزوار. فمن المؤسف أن آخذها إلى الأرجنتين ليأكلها النمل.

ـ كيف تستطيع المزاح بهذه الأمور هكذا.

ـ تخلي عن هذا يا فتاة.. لا تظهري بهذه المأساوية. ألست سعيدة بانتهاء هذا الوضع المستحيل؟

ـ أجل.. سيكون من المريح انتهاء الأمر. فأنا أكره كل أنواع الخداع.

ـ حسناً.. ليس عليك أن تذكري هذا دوماً.

واحمّر وجهها وقد فهمت أنه يعني ما قام به من خداع في فالموند. وتابع:

ـ أنا آسف لأن أتركك تواجهين كلام الناس لوحدك. ولكن الإشاعات سرعان ما ستموت. عليّ أن أقول إن الشاب الذي ترتبطين به كان متساهلاً كثيراً. فأنا لم أكن لأسمح لفتاتي أن ترتدي خاتم رجل آخر مهما كانت الأسباب.

وأجفلت، فقد نسيت كل شيء حول خدعتها الصغيرة بحق دايفد. إذاً لهذا السبب لم يقترب أبداً من المنزل، فهو لم يرد أن يلتقي بخطيبها المفترض وتابع قائلاً:

ـ هذا كل ما أردت أن أقوله.. سأتصل بك لأبلغك موعد زيارتك. أعتقد أن باستطاعتك أن تأتي في أي وقت؟

ـ أجل...

ـ هذا جيد.. بعدها لن تريني أبداً.

ووقعت عليها كلماته كالقدر المحتوم. ونظر اليها متسائلاً وهو يمسك الباب، منتظراً منها أن تخرج من السيارة، فخرجت متثاقلة من السيارة التي شهدت أزمات كثيرة في حياتها. وبينما هي تخرج احتك جسمها به، فتراجع

بسرعة. هل لمستها له بغيضة على نفسه هكذا؟

ـ إلى اللقاء.. وفي المرة القادمة ستكون وداعاً.

لن تتركه وهو مقتنع بالكذبة الحمقاء، التي هي أكبر من كذبة الخاتم في إصبعها.. فقالت بيأس:

ـ مارك.. أرجوك.. قبل أن تذهب، أريد أن أقول لك عن هذا الولد.. دايف...

ـ ارجوك لا أريد أن اسمع أي شيء عنه. عندما أذهب يمكنك ان ترميني وكل ما يتعلق بي ورائك، وتبدأي بداية جديدة. وهذا ما أنوي أنا فعله أيضاً.

واختار مارك يوم السبت لذهابها إلى رافنسكراج، وعندما أقفل الهاتف، أدركت بقلب حزين، أنها ستكون آخر مرة تراه فيها. بعد ظهر غد سيكون آخر مرة تشاهد فيها مارك ترهران وصفحة كاملة من وجودها ستنتهي، وستواجه مستقبلاً فارغاً لن يكون هو أو رافنسكراج أي جزء منه.

على كل الأحوال، كانت مصممة لأن تظهر الشجاعة. فهي تكره أن يدرك مارك نوع الورطة التي ستجد نفسها بها، فهي قادرة على تخيل تعبيره الساخر عند أول إشارة للعاطفة قد تظهرها. وإذا كان يتوقع أن يحقق انتقاماً مناسباً منها لمعاملتها له هكذا، فسوف تخيب ظنه.

وأخيراً ذهبت إلى الفراش باكراً لترتاح جيداً قبل يوم الغد الذي سيتطلب

كل جهدها، ولم يكن لديها حدس مسبق أن تلك الرحلة التي تخاف منها قد لا تحدث أبداً.

www.elromancia.com

٨ ـ ضباب في القلب

عندما حل صباح يوم السبت، كان كل الريف مغطى بضباب كثيف، حجب التلال وملأ الأودية بالبخار الناعم الرمادي. وأخذت داماريس تتساءل عما إذا كان مارك يستطيع الحضور. وخلال تناول طعام الفطور اكتشفوا أن كلب دايفد، بلوتو، غير موجود. وبعدما فتشوا عنه ولم يجدوه، أخذت داماريس تطمئن دايفد قائلة إنه إذا لم يعد الكلب فستبلغ البوليس للتفتيش عنه.

ووصل الى المحل زبائن غير متوقعين، فقد أتوا لزيارة الريف وعندما وجدوا أن الريف كله معتم بالضباب، قرروا التجول في المدينة وشراء التذكارات. وكانت داماريس تساعد ماري في المحل وهما تظنان أن دايفد مع هيلين التي ذهبت إلى السوق. ولم تنتبها قبل نصف النهار، عندما كانت داماريس تصعد إلى غرفتها لتغيير ملابسها للقاء مارك، أن دايفد قد اختفى. وصاحت داماريس بقلق:

«لا بد أنه ذهب للتفتيش عن الكلب» واقترحت ماري المرعوبة الاتصال بالبوليس. وقالت هيلن «من الأفضل أن نفتش عنه قبلاً، قد يكون مع ديك» ولكن ديك لم يكن قد شاهده.

وكانوا في وسط تشاورهم عندما دخل مارك لأول مرة المحل. بعد أن

مضت ساعة لقاءه مع داماريس في موقف السيارات. ونظرت إليه باستغراب، بينما انسحبت ماري وهيلين. وتمتمت داماريس:

ـ أنا... أنا.. لم أعتقد أنك ستأتي.. فالضباب...

ـ لقد أتيت بالطبع. لقد قلت لك ان السيدة غارث ستتوقع قدومك على الغداء، وستتأخر عليها كثيراً، فأنت لست مستعدة بعد.

ـ لقد نسيت كل شيء..

ـ يبدو هكذا. حسناً.. اسرعي. لا أستطيع الانتظار طوال اليوم.

ـ لا يمكن لي أن أذهب معك الآن. لقد حدث شيء.

ـ كنت أخشى هذا.. ماذا حدث؟

ـ دايفد مفقود.

ـ دايفد؟

ـ أجل ابن ماري الصغير. إنه مفقود منذ ساعات.

ـ دايفد هو ولد؟...

ـ طبعاً... أوه مارك، إنه في الخامسة من عمره، وفي هذا الضباب قد يقع عن حافة منحدر أو يدهسه أحد..

وانهار صوتها بالبكاء. وفوراً أصبح بقربها، ووضع ذراعه حولها ليهدأها، وتمسكت به وهي سعيدة بدعمه لها ومرتاحة لوجوده.

ـ لا تكدري نفسك.. سنجده. والآن.. متى افتقدتموه. وماذا فعلتم؟

وأخذ زمام المبادرة، فاتصل بالبوليس، الذي وعد بالتفتيش عنه واستخدام الكلاب. واتصل بكل المستشفيات المحلية. ثم اقترح أن تعد لهم هيلين القهوة، وبعض الطعام، قائلاً بلطف:

ـ يجب أن تحافظوا على قواكم.

وفهمت هيلين الحكمة من وراء اقتراحه، ولكن ماري تكدرت واحتجت:

ـ لا نستطيع الجلوس دون أن نفعل شيئاً. ولن أستطيع أن آكل.

ـ من الأفضل ترك التفتيش للمتخصصين به. فلن يفيدك بشيء أن تخرجي وتقعي من فوق منحدر. ولكنك تستطيعين تحضير الفراش وبعض الأغطية وقرب الماء الساخنة. سيكون مرتجفاً من البرد عندما يجدونه. ولكن جربي أن تشربي شيئاً أولاً.

وأخذ فنجان القهوة وساعدها في ارتشافه. وذهلت داماريس لرؤية هذا الوجه الجديد لابن العم مارك. فقد التفت النسوة الثلاث من حوله طلباً للإرشاد وكن سعيدات لوجوده هناك.

وأحس الكلبان تريس وسول أن شيئاً ما يحدث، فأخذا في النباح فأدخلتهما داماريس إلى المنزل، ويبدو أنهما عرفا مارك، وقفزا عليه مسروران، وبدت له فكرة:

ـ هل هما جيدان في اقتفاء الأثر؟

ـ لا أعرف ولكن يجب أن يكونا كذلك؟

ولكنهما لم يكونا كذلك فبعد أن أرتهما بعض أغراض مارك خرجا ليدورا حول المنزل ثم عادا وجلسا أمامه دون حراك.

وخاب أمل داماريس، فدخلت مع مارك إلى المنزل. ووصل الكلب الأخر مبللاً وموحلاً، وأخذ يزحف على قائمتيه وكأنه يعرف أنه ارتكب خطيئة ويسعى للغفران. وجففته داماريس ووضعت له طبق طعام. ولكنه لم يلمسه، بل أخذ ينبح ويدور حول الغرفة. فقالت ماري:

ـ إنه يبحث عن دايفد. إنه دائم القلق عندما يكون غائباً.

ـ إذاً دعوه يفتش في الخارج.

ووضعت داماريس الرباط له، وراقبته بقلق وهو يدور حول المنزل كما فعل والده. ثم انطلق، وهو يشد الرباط بحيث أن داماريس اضطرت إلى الركض لتلحق به، وكان مارك يسارع الخطى بالقرب منها، وقطع الحيوان الطريق، وقادهما نحو الميناء، وهبط قلبها ولكنها ارتاحت عندما استدار بلوتو ليدخل بين كوخين بعيدين عن الماء وبدأ يتسلق. وترنحت داماريس واصطدمت بالصخور وخدشت اصابعها وهي تحاول التوازن، وكان مارك خلفها فالتقطها قبل أن تقع. وكان الضباب الكثيف يمنع الرؤية لأكثر من مترين وسمعت مارك يقول:

ـ أتمنى أن يكون الكلب يعرف ما يفعل.

ـ إنه يعرف.

وأخذت تحدق بذنبه المهتز وأنفه اللاصق بالأرض، وقال مارك:

ـ لا أصدق ان طفلاً يستطيع التسلق هنا.

وتدحرجت بعض الصخور عليه من تحت قدمي داماريس فشهقت وقالت «آسفة يا مارك، لم أستطع تجنبها».

ـ لا تصرفي تنفسك على الاعتذارات سوف تحتاجينه.

وجذب الكلب الرباط فجأة فأفلت من يدها، ووقعت على وجهها وأخذت تنزلق إلى الخلف، فأمسك بها مارك، وأوقفها على رجليها ثابتة، واختفى الكلب وتشبثت بمارك وهي تصرخ بهستيريا:

ـ اتعتقد أنه وقع!

ـ إنه لم يقع..

ومن خلال الضباب فوقهما سمعا صوتاً طفولياً يصرخ بفرح:

ـ بلوتو! أوه بلوتو!

ووضع مارك ذراعه حولها وقادها نحو الصوت وتحت صخرة كبيرة كان دايفد متكوراً وذراعاه حول عنق بلوتو، وانزلقت داماريس من بين ذراعي مارك وانهارت على الأرض.

ـ أوه.. دايفي، دايفي، لماذا أخفتنا هكذا؟

ـ لقد أردت ان افتش عن بلوتو. إنه يأتي إلى هنا دائماً عندما يكون معنا في نزهة. وخفت أن أنزل. لم أستطع رؤية شيء....

وانفجر بالبكاء. «لقد كنت خائفاً جداً» وأخذته داماريس بين ذراعيها وقالت «انت بخير الآن». ونظرت إلى مارك وكأنه عامود مظلم وسط الضباب. «ولكن بحق الله.. كيف سننزل من هنا»؟ الصعود كان سيئاً جداً، أما الهبوط فهو أسوأ بكثير.

وجلس مارك بجانبها عند حافة الصخرة، وقال مقترحاً:

ـ أعتقد ان علينا الجلوس هنا إلى أن تجدنا فرقة التفتيش، فقد نقع فوق صخرة على وجهنا، ويبدو أن بلوتو لا يريد أن يقودنا.

وكان الكلب قد تعب، وقنع بأن وجد سيده، فجلس تحت قدمي داماريس ونام، فتابع مارك كلامه:

ـ إنها ليست فكرة مريحة، أنت مبللة وترتجفين من البرد، خذي معطفي.

ـ لا.. أنت بحاجة إليه، وكنزتي سميكة.

وبصعوبة في ذلك المكان الضيق خلع مارك معطفه ولفه فوق اكتافهم المتقاربة قائلاً:

ـ نستطيع المشاركة به.

واجتمع الثلاثة وكلبهم تحت الغطاء، داماريس كانت تضع الولد في حضنها، والكلب إلى جانبها، ووضع مارك ذراعه حول خصرها. وقال دايفد:

ـ أنا جائع.

ـ لا نستطيع فعل شيء لك. ولكن المساعدة ستأتي حالاً، حاول أن تنام. ونام.. بينما حاولت داماريس أن ترتاح في وضعها، واشتدت ذراع مارك على وسطها وجذبها نحو صدره وقال:

ـ اتكأي عليّ...

واسترخت على صدره. قربه منها، الطمأنينة بين ذراعيه الدافئتين كانت مريحة لها. وقال لها بطريقة جافة:

ـ أعتقد أن هذا الشخص الصغير هو دايفد الذي تهيمين به حباً، لماذا حاولت خداعي؟

ـ أردت أنت أنتقم منك بسبب روزيتا، أعرف أن هذا كان سخافة وقد أسفت على هذا منذ ذلك الوقت.

ـ يجب عليك أن تأسفي. أما بالنسبة لروزيتا. لا أعتقد أنك قد تدركين ماذا يعني وجود ضيف في بيتك يقلق راحتك وهو قريب لك.

ـ ولكن.. ولكنك قلت إنك ستتزوجها.

ـ لم أقل هذا.. بل قلت «ربما» وهي تعني كل شيء ولا شيء.

وانت لم تكوني لطيفة معي، أليس كذلك يا حبيبتي؟

ـ أوه يا مارك... كم كنت غبية... ولكن إيلينا قالت إن روزيتا ستتزوج، وطلبت مني السكن معها بعد زواجها. وبالطبع اعتقدت أنها ستتزوجك... هل كان.. هل هناك شخص آخر؟

ـ طبعاً... فروزيتا لديها عدة خيوط تمسك بها. وعندما قلت لها ان لا فائدة من اضاعة وقتها معي قررت أن تتزوج مانويل راموس، وهو رجل كان يحاول بيدرو أن يدبر زواجها منه منذ زمن.

ـ ولكن... ولكن.. ألم يكن لك علاقة معها؟ لقد قالت إيلينا..

ـ أيجب عليك أن تستمري في الاستشهاد بأختي؟ إنها ليست معصومة عن الخطأ. لست من الغباء بحيث أقيم علاقة عند عتبة بيتي.

وكانت هذه ملاحظة مع كل ما فيها من سخرية وانتقاد، تبدو مقنعة وتابع:

ـ داماريس، هل انا مخطىء بالاعتقاد أنك تغارين؟

ـ وإن يكن؟

ـ لا يمكن لأحد أن يغار إذا كان غير مهتم.

ـ لم أكن غير مهتمة بك أبداً. لقد كنت غاضبة منك، وكرهتك، حتى أنني... احببتك...

كان صوتها منخفضاً جداً حتى انه اضطر إلى إحناء رأسه إلى فمها ليلتقط كلماتها، فسألها بهمس «أحببتني»؟

ـ إنه افتتان فتاة مدرسة حمقاء... وحاولت ان اخمده.

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأنك... لأنك لم تشر أبداً... أبداً أنك تحبني...

ومات صوتها وهي تدفن وجهها في كتفه. ولاذ بالصمت للحظات، ثم تكلم بحياء مميز «لا أعرف معنى الحب يا داماريس، فالحب قد يعني أشياء عديدة مختلفة، وما أشعر به نحوك هو شيء لم أشعر به تجاه اية امرأة أخرى. وانا مجبر لأقول لك هذا طبعاً..»

وضحك وتابع «ومع ذلك ففي الواقع كانت هناك نساء أخريات، ولكن لم يكن هناك شيء جدي، وكنا نفترق دون أسف، ولكن عندما أردت انت أن

تفسخي الخطوبة، شعرت بحياتي وكأنها قد فرغت بشكل غريب. لقد تركتك لأنني اعتقدت أن سعادتك هي في مكان آخر».

وتحرك الولد وأنّ قليلاً، ورفع بلوتو رأسه، ورفعت داماريس رأسها وقالت «لقد سمع الكلب شيئاً.. أليس من الأفضل أن تصرخ؟ صوتك أقوى من صوتي».

وقال ببرود «قبل أن أفعل.. هل تعودين إليّ يا داماريس؟ في فالموند اعتقدت على الأقل أنك معجبة بي. وخططت لاتحاد سعيد بيننا، ولكن كل شيء فسد. اعتقدت انك لن تسامحيني لأنني لم أكن عجوزاً مقعداً كما توقعت».

وكان هناك رنة ضحك في صوته. وحاولت داماريس أن تشرح الأمر له، وأذناها تصغيان إلى صوت فريق التفتيش

ـ اعتقدت أن بإمكاني التكيف مع رجل مسن. وجعلتني أنت أبدو بلهاء ثم كانت روزيتا...

ـ لعن الله روزيتا... هل هذا جيد؟

ـ أنت ستبيع رافنسكراج.

ـ لا أريد بيعها، ولكن لا أستطيع تحمل العيش فيها من دونك.

وسمعا صوت أقدام على الصخور تحتهما ورفعت رأسها لتنادي ولكنه وضع يده على فمها وقال «ردي عليّ أولاً».

ومن بين أصابعه همست «أهذا ابتزاز»؟

ـ أجل، اعتبريه ابتزاز.

وابعدت يده عن فمها وقالت:

ـ إذاً ليس لديّ خيار آخر. هل لديّ يا مارك؟.. أنا... أنا... سأكون فقط سعيدة جداً لأعود إليك.

ونبح بلوتو..

وفي وقت متأخر فيما بعد، وعندما اكتفيا من وجبة الطعام التي حضرتها لهما هيلين، قالت داماريس:

ـ سأسحب كلامي الذي قلته في فالموند عندما قلت إنك لا تشبه بطل الرواية تريستان.

ـ وما الذي جعلك تقولين هذا؟

ـ إنها اصداء من «القصر»، ولكنني لم أحب سوى مارك، ومثل ايسوليت لم أجرؤ على تسمية من أحب.

ـ إنه اول شيء جميل تقولينه لي.

ودخلت ماري بعد ان وضعت دايفد في فراشه وقالت لهما:

ـ إنه يريد رؤيتكما معاً قبل أن ينام... أتمانعان؟

ووقفا يداً بيد إلى جانب سرير ماري حيث وضعت دايفد، وقد استلقى فوق الوسائد، وبلوتو الذي رفض أن يفترق عنه يتمدد فوق سجادة صغيرة إلى جانب السرير. ونظر دايفد إلى مارك، وشع الإعجاب بالبطل في عينيه. وسأله:

ـ عندما أصبح رجلاً كبيراً.. هل سأبدو مثلك؟

ـ أتمنى أن تكون أفضل مني.

ـ أنا أحبك.

ـ هذا عظيم يا بني. لأنك ستراني كثيراً بعد أن اتزوج داماريس.

ـ وهل ستأخذني إلى ذلك المكان «رافن» الذي قالت إنني لا أستطيع الذهاب اليه؟

وضغط مارك على يد داماريس وأجابه:

ـ تستطيع قضاء ما يحلو لك من الوقت هناك، تستطيع أن تكون الأخ الكبير لأولادنا، عندما يأتون.

وكانت العينان التي ادارهما نحو داماريس كاللهب الأزرق، وأصبحت بلون سر قانٍ. وغرق دايفد في وسائده، وانخفضت رموشه فوق عينيه، ونام.

وتمتم «يوماً سعيداً» ثم رفع راسه ليسأل «ولكن ماذا ادعوك؟ هل انت سير» أم «عم»؟

ـ ولا واحد من الاثنين، فانا لست «سير» قطعاً. ولا أشعر بالعجز لتدعوني عم».

ونظر إلى داماريس نظرة صارمة وتابع:

ـ لقد عاد إليّ شبابي: ما رأيك أن تدعوني «ابن العم مارك».